



# في فراءة النصر اللّيني

عبدالمجيد الشرفي كمال عمران  
 المنصف بن عبد الجليل الباجي الثمري  
 وداد القاضي

موافقات

# في فريضة النصر الديني

عبد المجيد الشرفي كمال عمران  
المنصف بن عبد الجليل الباجي القمري  
وداد القاضي

الطبعة الثانية

الدار التونسية للنشر

© جميع الحقوق محفوظة للدار التونسية للنشر

ISBN 9973 - 12 - 139 - 2

ISBN 9973 - 12 - 140 - 6

1990

في فرقة النصر الديني



## مقدمة

هذه سلسلة وليدة موسومة بـ «موافقات» والعبارة مشدودة إلى التراث الفقهي عموما وإلى الشاطبي على وجه التأكيد . واختيار العنوان يقصد الربط بين الماضي والحاضر على أساس الخصوصية . فالماضي عرف رجالا رسخت أقدامهم في واقعهم فتعاملوا معه تعاملنا ناضجا كان يستبصر العلاقة الحيّة بين الشريعة والواقع الاجتماعي . وكان هؤلاء الرجال، لا كل الرجال مطلقا ، بل الذين شحذوا الهمة لدرك مقاصد الشريعة وتوظيفها، يراعون العنصر البشري ويعلمون أن الدين ليس مبادئ وأحكاما وقيما نظرية مثالية ، بل هو ضرورة للعمران تمحض الانسان لترويض النفس على طلب العمل الصالح في ظل الايمان الصادق : فللدين حقيقة اجتماعية ووظيفية إن أغضى عنها فقد بعض مصداقيته. على أن الانسان هو الذي يجري الدين إجراء اجتماعيا وقد حملّ الله الإنسان مسؤولية الأرض وسخرها له وجعله خليفة له فوقها .

وربط القرآن الكريم الإيمان بالعمل الصالح ، وهو لا يصلح موضوعيا إلا في اطار الواقع الإجتماعي . فمن علماء الدين في الماضي من عاشوا زمانهم لانهم اهتموا إلى أن التقليد ليس من شيم الإسلام . وأن الاغضاء عن حركة الحياة ليس من سنن الله في خلقه . ليس المجال بداهة للقول في العقيدة أو في الشريعة . فهما مادّتان واضحتان متأكدتان ، وإنما القول في العقل الذي أعطي للإنسان في إحكام التوظيف والقدرة على مراعاة المصلحة . فإذا كان الدين فطرة ، فإنه ملازم للحقيقة الانسانية في كل ما هو جوهر . والجوهر البشري يرقى بالدين عقيدة وشريعة إلى نموذج إنساني صالح ويسعى إلى المحافظة عليها . وهذا النموذج مدفوع إلى التعامل مع واقعه الاجتماعي والحضاري والتاريخي . فلا ضير أن نقول إن من القدامى من تحملوا المسؤولية وأدوا الأمانة . وأنه علينا أن نتحمل المسؤولية ونؤدي الأمانة . هي مسؤولية غسل الأدمغة من الشعوذة وعقلية التخاذل والتفسخ وما يؤدي إليها . وهي أمانة العلم الصادق الذي يميّز بين الأصل والزيف . وتجتمع المسؤولية مع الأمانة لمواجهة واقعنا الحضاري الذي نعيش .

هل يرتاب ذو عقل في الاختلاف النوعي بين نمط حياتنا في عصرنا ونمط الحياة التي كان عليها أجدادنا .

كل بُنى العالم التقليدي هوت أو كادت وتأسست بُنى جديدة . كانت المسافات بعيدة قاصية قاسية . وأصبح الناس يعيشون في قرية العالم . كان الزمن يجثم على حياة الأدمي ببطء فأصبح سريع الانقضاء قد يستحيل سرايا خلبا . كان الوضع البشري رهين ما أدركه الانسان من معرفة محدودة وأصبحنا نمر بسرعة من عصر الآلة إلى عصر التكنولوجيا إلى الإعلامية والأقمار الصناعية . إنه عالم جديد ذو بنى طارفة تستحثنا على أن نتعلق بها لا أن نرمقها وأن نغازلها أو نتغنى بها . فإما أن نعيش واقعا كما هو وإما أن نقبع في الأحلام وأن نرسب في النشاط الحضاري . واقتحام الواقع يستوجب جرأة . ويفرض أن نتخلى عن العقم وعن العقد والمركبات . إنه يدعونا بل يتوسل إلينا أن نرتقي إلى الحضارة لأنها لا تملك هوية عرقية بل هوية إنسانية ، وهي لا تخضع للمناخ الجغرافي بل للمناخ الثقافي . ومن الجرأة أن نثير القضايا الشائكة التي نعيشها في خضم التمزق المفتعل بين الأصالة والتفتح . ووجه الافتعال بل الزيف ، أن الأصالة بديهة عند الإنسان وأن التفتح فطرة . نحن بحاجة إلى أن نعرف أنفسنا ، وهي معرفة ثقافية انثروبولوجية ، وإلى أن نعرف واقعا ، سواء كان محيطا طبيعيا أو اجتماعيا أو بشريا مغايرا . ولا يخفى أن مبدأ المغايرة من الحقيقة البشرية ، فإن اعتبرنا المغايرة هي حق الآخر أن يكون غيرنا يتيسر الاتصال ويسنح العروج إلى مستوى



الحضارة بروح التسامح ومراعاة حق الاختلاف .  
هذه السلسلة حضارية ثقافية . لا تطال المجال  
العقدي والفقهي فلهما أهلها ، بل تنطلق من القضايا  
الراهنة ، في المستوى المعرفي والثقافي في المفهوم الشامل  
والفلسفي . وتثير المسائل الحضارية الشائكة . وهي تكتفي  
بالإثارة دون فرض الحلول وتسطير سبل النجاة ، فهي  
تطمح إلى أن تعد للمستقبل وهو يستدعي منا الكفاءة  
والطاقة على مواجهة أنفسنا لترويضها على أن تنحت  
وجودها في الوضع الملائم والناجع .

ولا شك أن السلسلة تفتح أبوابها إلى من يريد الإسهام  
في عملها الثقافي وهي تجتهد لتوفر المواقف الناطقة عن  
معاناة الواقع الحضاري الراهن والقادم وهي تؤمن بحرية  
الفكر وتسعى إليها وتحترم الآراء المخالفة وإن هي لا  
تتبنها ولكنها تربطها بأصحابها وتنشرها على هذا  
الأساس .

كمال عمران

## في قراءة التراث الديني «الإتقان في علوم القرآن» نموذجا

عبد المجيد الشرفي

يجدر بنا قبل الاشتغال بمشاكل قراءة التراث الديني أن نحدّد ما نعنيه بهذا التراث . فهو عندنا في هذا البحث لا يشمل الطقوس والعادات والتقاليد والعقائد الشعبية ، وإنما يقتصر على الآثار المكتوبة التي تتعلق بالمواضيع الدينية سواء كانت في ميدان التفسير أو الحديث. أو علم الكلام أو أصول الفقه أو الفقه ذاته.

أما الخاصية الثانية لهذا التراث فهي أنه يتمحور حول النص القرآني وينطلق منه في جميع الحالات (1) ولئن بدا هذا الأمر بديهيا بالنسبة إلى المسلم فمن المفيد الانتباه الى هذه المكانة الفريدة والتميزة للنص التأسيسي ، إذ لا مثل لها بنفس الدرجة في الديانات الأخرى حتى النبوية منها أو الكتابية . فالمشنا

والتلمود عند اليهود - وهي مجموع آراء الربانيين  
وتفاسيرهم - ينازعان التوراة المكانية الأولى في  
اليهودية، والتقليد الكنسي مقدّم على الكتاب المقدس ،  
وإذن على العهد الجديد ذاته بما فيه الأناجيل ، في  
المسيحية الكاثوليكية . فنحن بالتالي حين نتناول التراث  
الديني في الاسلام إنما نهتم بنصوص على النص  
المقدس ، أي بإنتاج بشري تاريخي يسعى إلى الوفاء  
لذلك النصّ المقدس ولكنه في الآن نفسه يؤوِّله ويوظِّفه  
ويوجهه حسبما تقتضيه الظروف التاريخية ومصالح  
الفئات التي تتنازع التأويل وما تسمح به الآفاق  
الذهنية والأطر الثقافية والمعرفية في تلك الظروف .

وفعلا فالنص التأسيسي قابل نظريا لعدد غير  
محدود من التأويلات . ولأنه نص رمزي ثري يستعمل  
المجاز والصور والأمثال والاشارة والتلميح ولا يتقيد  
بالمقولات المنطقية أو بأساليب المتكلمين والفقهاء  
وخطابهم فإن المسلمين قد وجدوا بعد مرحلة التلقي  
العفوي الأولى صعوبة جمة في أقحامه ضمن القوالب  
المعرفية ذات الغايات الإجرائية والنفعية المباشرة وفي  
نطاق الحرص على وحدة الأمة وتماسك عقائد  
المجموعة وانسجام سلوكها . ومن الطبيعي ، والحالة

هذه ، أن يذهب التأويل والفهم في اتجاهات عديدة لا تخلو من الاختلاف وحتى من التناقض ، لا سيما في إطار ثقافة شفوية بالأساس أعوزتها الوسيلة الدقيقة (لا ننسى أن الحروف كانت بدون نقاط وطبعا بدون حركات) وقلّ فيها من يحسن القراءة والكتابة ، وفي ظروف سياسية احتدّ فيها الصراع على السلطة واحتاج كل فريق الى تدعيم موقفه بمستند قرآني ، بالإضافة إلى هشاشة السنة الثقافية الإسلامية وهي في طور النشأة والتكوّن كما هي الحال بالنسبة الى أي سنة ناشئة تفتقر الى رصيد تاريخي راسخ في الضمير وفي السلوك .

ومن الطبيعي كذلك ، نظرا الى هذه المعطيات كلها ، أن تعقب مرحلة البحث وتلمس الحلول ، أي المرحلة المنفتحة والحبلى بمختلف الإرهاصات ، مرحلة يبدأ فيها الاستقرار فيطغى أحد الاتجاهات في الفهم والتأويل على ما سواه وينسى ما يُخالفه أو يغيب . وما هذا الاستقرار في الحقيقة الا بداية انغلاق السنة الثقافية الإسلامية على نفسها بما يترتب عن الانغلاق من اقصاء لكل رأي مخالف قد يذهب الى حد التكفير . وهو ما تمّ بالفعل منذ اكتمل التدوين واستأثرت

الفرق والمذاهب بخصائص مميزة وقامت بينها حدود نهائية أو شبه نهائية .

ويمكن لنا في كثير من الإيجاز أن نعتبر القرن الأول والنصف الأول من القرن الثاني للهجرة فترة نشوء السنة الثقافية الإسلامية وبحثها عن مرتكزات ثابتة ومرجعية دقيقة ، بينما مثلت الفترة الممتدة من منتصف القرن الثاني إلى نهاية القرن الرابع عهد الاستقرار وبداية الانغلاق ، وهي الفترة التي شهدت تدوين أهم الآثار في التفسير والحديث وسائر العلوم الإسلامية . أما الفترة الموالية التي تبتدىء من القرن الخامس فهي عهد الجمود والمحافظة وفشوّ التقليد على نطاق واسع .

على أن هذه الصورة المختزلة لا توفّر في الحقيقة إلا فكرة عامة عن الخطوط الكبرى لمسار السنة الثقافية الإسلامية . فلقد وجدت في الفترة الأولى ومنذ عهد مبكرّ عدة ثوابت رغم الاختلافات التي كانت قائمة بين الصحابة أنفسهم ثم بين التابعين والأجيال اللاحقة . وكذلك الشأن بالنسبة الى فترة الجمود والانغلاق ، فهي لم تخل من مساهمات طريفة ومبادرات رائدة . والفرق إذن بين هذه الفترات الثلاث الكبرى إنما هو في

نسبة الإبداع والتفكير غير المقيّد بشروط مجحفة  
وتعجيزية ولا يعني البتة أن هناك فوضى مطلقة في  
فترة وانعداماً كلياً للتفكير والاجتهاد في أخرى .

إن هذه المقدمة تسمح لنا بتنزيل كتاب جلال الدين  
السيوطي (ت 911 / 1505) **الإتقان في علوم القرآن** في  
الإطار التاريخي والمعرفي العام الذي يندرج فيه بصفة  
طبيعية . ومعلوم أن السيوطي مصنّف جامع قبل كل  
شيء اشتغل بتصنيف مختلف المعارف التي كان يمكن  
لعالم من القرن العاشر أن يطلع عليها . ولكن هذه  
السمة الموسوعية لمؤلفات السيوطي - الواضحة كذلك  
في الاتقان - لا تنفي قيامه بعملية انتقائية للمعلومات  
التي دونها ولا محاولة توجيه قارئه نحو خيارات  
معينة تتماشى واهتمامات عصره وثقافة معاصريه .

وهذا ما نلمسه في هذا الكتاب الذي هو في الأصل  
مقدمة لتفسير قرآني (2) جمع فيه ما يتعيّن على  
المفسّر معرفته واعتقاده قبل الإقدام على التفسير ذاته.  
فعلوم القرآن التي يتعيّن اتقانها عنده هي جملة  
المعلومات المتعلقة بهذا النص من كيفية الوحي به  
وتنزيله الى تدوينه وترتيبه ومعرفة مكّيه ومدنيه  
وناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومطلقه

ومقيدته وما الى ذلك من المعارف التاريخية والأصولية والكلامية واللغوية والفقهية والبلاغية الضرورية لأي فهم سليم وسلوك مستقيم . وتبرز أهمية الإتقان بالخصوص في أنه يمثل أحسن تمثيل ثقافة المفسر الكلاسيكي ، بل ثقافة العالم المسلم ، على أساس أن القرآن هو قطب العلوم الدينية كلها ومحورها كما رأينا.

وليس في نيّتنا في هذه العجالة أن نلم بكل القضايا التي يثيرها كتاب الإتقان لدى القارئ المعاصر فنحن انما نعتمد الإتقان أنموذجا للتراث الديني حتى نتبيّن منهج قراءة هذا التراث . لذا ارتأينا أن نعتمد منه على نصين : يشتمل الأول على النوع العاشر بعنوان «فيما نزل من القرآن على لسان بعض الصحابة» ، وورد النص الثاني ضمن النوع السابع والأربعين المتعلق بالناسخ والمنسوخ (3) .

وأول ما يسترعي الانتباه في هذين النصين أنهما يتعلقان بالوحي كليهما : هذا يهتم بأقوال جاءت على لسان الصحابة فكرّسها الوحي وأصبحت بذلك جزءا من القرآن ، وذاك يهتم بظاهرة النسخ وكيف كانت بعض الآيات ضمن القرآن ثم لم تثبت فيه عند الجمع

والتدوين . وكان من المفروض إذن ، اعتمادا على هذه الملاحظة ، أن يكون النصان قرييين من بعضهما البعض في ترتيب السيوطي لأنواع كتابه ، إلا أنهما كانا متباعدين الأول في النوع العاشر والثاني في النوع السابع والأربعين وتفصل بينهما مباحث عديدة ومتنوعة . ولا مناص لنا في هذا المستوى من أن نستنتج أن ترتيب مباحث الإتيقان لا يخضع لمنطق التدرج ، من العام الى الخاص مثلا ، أو لمنطق التعمق في دراسة المواضيع بقدر ما يخضع لاعتبارات أخرى لعل من أبرزها جمع المادة التي تخدم الأغراض الفقهية، أي معرفة الأحكام ، على حساب البحوث النظرية الصرف وما تقتضيه من منهج صارم في العرض والاستدلال والاستنتاج . ولهذا جاءت مادة الكتاب تراكما لمعلومات يتعين على المفسر حفظها وقبولها على علاتها دون أن يطلب منه البتة التفكير فيها وإعمال رأيه الشخصي في مدى انسجامها أو ملاءمتها لمقاصد النص القرآني من ناحية وللحقيقة التاريخية من ناحية أخرى .

الملاحظة الثانية التي تلفت الانتباه مباشرة في هذين النصين وفي كامل الكتاب طغيان النقل ، ومنهج



المحدثين بالخصوص ، على المادة . فنحن بإزاء أخبار  
دوّنت عن الصحابة ولم يسمح السيوطي ولا أسلافه  
لأنفسهم بالتفريط فيها رغم معارضتها البيّنة للتصور  
الشائع عند المسلمين للوحي ، مما يدعّم الانطباع الذي  
تتركه في القارئ المعاصر طريقة التأليف والتصنيف  
عند القدماء . تلك الطريقة التي تؤدي إلى الإشباع  
النفسي على حساب الإقناع العقلي بالحجج والبراهين .  
وحتى إذا ما خطر للقارئ أشكال ناتجة عن المادة  
المعروضة فهو مدعو صراحة إلى التسليم والتفويض .  
وإذا كان منهج المحدثين والمنهج النقلي عموماً ،  
غير مرضي فهذا يعني أننا مدعوون إلى عدم الثقة في  
هذه الأخبار ككل ، ولا يمكن بحال تفضيل بعضها على  
البعض الآخر وتصحيح الأخبار التي تتعارض مع  
المفاهيم الشائعة على حساب الأخبار التي تدعمها أو  
العكس . بل يجدر بنا أن نرى فيها ، وفي مادة هذين  
النصين بصفة خاصة ، رواسب مرحلة بدائية في تكوّن  
هذه المفاهيم ومؤثراتها على الفترة التي سبقت  
الاستقرار والانغلاق وما كان يتعامل فيها من آراء  
ومواقف وتصورات غير متجانسة بالضرورة . وما  
اثباتها إذن إلا دليل على القداسة التي أُضفيتُ بمرور

الزمن على كل ما يتعلق بالنص القرآني سواء بمحتواه أو بتفسيره وتأويله وأغراضه أو ملابسات جمعه وتدوينه .

يمكن لنا الآن ، بعد اثبات هاتين الملاحظتين الأوليين ؛ أن نمر إلى المسألة الرئيسية التي يثيرها هذان النصان والاتقان عموما : إنها مفهوم الوحي عند علماء السنة. ولسنا في حاجة إلى الإطالة في عرض هذا المفهوم، إذ هو موجود في كل المؤلفات القديمة والحديثة التي اهتمت بالموضوع (4) . فالجميع يعرفون الأخبار التي يتناقلها المحدثون عن معاناة الرسول عند نزول الوحي عليه وكيف أنه كان يسمع أحيانا مثل صلصلة الجرس حتى يتصبب عرقا أو يتمثل له الملك في صورة آدمي أو يأتيه الوحي في المنام أو ينفث في روعه . لكن ، وبقطع النظر عن هذه الكيفيات ، فالنظرية السائدة تقوم على أن الرسول مجرد مبلغ أمين لما يلقيه عليه جبريل ولا يتدخل بصفة من الصفات في بلورة الكلام الإلهي المنزّه إلى خطاب في لغة بشرية ، كما تقوم على أن الحدود الفاصلة بين ما هو قرآن وما ليس بقرآن كانت حدودا واضحة في أذهان المخاطبين لاسيما وأن السور والآيات كانت تكتب وتحفظ ، ثم استغلت هذه

الوثائق المكتوبة مثلما استغل ما حفظ في صدور الصحابة في عملية الجمع التي قام بها أبو بكر الصديق أولاً وعثمان ابن عفان ثانياً حين ألزم المسلمين بمصحف واحد وأمر بحرق المصاحف الأخرى التي كانت متداولة خشية أن يختلف المسلمون في القرآن اختلاف اليهود والنصارى في التوراة والإنجيل .

إن ما هو جدير بالتسجيل في هذا الصدد أن السيوطي ، رغم تبنيّه بدون أي احتراز لهذا المفهوم السائد عن الوحي ، لم يتردد ولم يتحرج في إثبات روايات تنقضه ، بل إنه لم ير فيها ما يبرر الرد والاعتراض أو حتى الاحتراز . فليس من الهين أن يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب : «ليقولنّ أحدكم قد أخذت القرآن كله ، وما يدرية ما كلّه ، قد ذهب منه قرآن كثير» ! أو أن تقول عائشة -أم المؤمنين-: «كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن النبي (ص) مائتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن» (= 73 آية) أي انه أسقط قرابة ثلثها، ثم أن تذكر امرأة أخرى ، هي حميدة بنت أبي يونس ، آية كانت في مصحف عائشة «قبل أن يغير عثمان المصاحف» مثلما يسأل عمر بن الخطاب عبد الرحمان

ابن عوف عن آية «جاهدوا كما جاهدتم أول مرة» فيجيبه أنها «أسقطت فيما أسقط من القرآن» .

فما عسى أن يكون موقف الباحث من هذه الظاهرة ؟ - ان له أولاً دليلاً على انعدام الحس النقدي عند السيوطي و أمثاله من المصنفين في عصور الجمود والانغلاق . فلقد انعدمت عندهم الرغبة في الإطلاع على خفايا الأمور وحقائقها ، وانعدم التوق الى كشف المجهول والملتبس فلا أثر لأي شك أو توتر ، كما مات لديهم الشعور بإمكانية خطأ المتقدمين وبالخصوص إن كانوا من الأجيال الاسلامية الأولى(5) .

- ثانياً : إن إثبات هذه الشواهد على أن عملية جمع القرآن لم تخل من الشوائب لم يكن ليثير في أذهانهم أي اشكال ، لسببين رئيسيين على الأقل : لأن أي مجموعة لا يمكن أن تلقي من الأسئلة إلا ما هي قادرة على الإجابة عنه من ناحية ، ولأن ما رسخ في الضمير الاسلامي ، من ناحية ثانية ، هو أن القرآن المثبت في المصحف هو الذكر الذي أخبر الله عنه بقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر ، 15 ، 9) ، وأن آية البروج 85 ، 22 : ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ ، وآية فصلت 41 ، 42 : ﴿وانه لكتاب عزيز لا

يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿ كافيتان في طمأنة المؤمن على سلامة كتابه المقدس ، لا سيما وأن الإجماع قد انعقد عليه ، وما أدراك ما الإجماع ! إلا أن الترادف التام بين القرآن والمصحف والذكر والكتاب ليس بديهيا على النحو الشائع لدى القدماء وأتباعهم السلفيين ، وينبغي أن يكون موضوع بحث عميق وتحليل مستفيض واستقصاء قد يؤدي الى نتائج مخالفة للحلول التي ارتضوها .

- ثالثا : تأكيدا لما سبق أن قلناه ، ليس من حق الباحث أن يسلم بصحة هذه الأخبار ، بل عليه أن يقارنها بما يقوله القاضي عبد الجبار مثلا عن الروافض إنهم «جوزوا في القرآن الزيادة والنقصان وقالوا إنه كان على عهد رسول الله (ص) أضعاف ما هو موجود فيما بيننا ، وحتى قالوا : إن سورة الأحزاب كانت بحمل جمل وإنه قد زيد فيه ونقص وغير وحرّف. » (6) . أي أن هذه التهم المتبادلة بين السنة والشيعة في شأن تحريف القرآن (7) ربما تكون وراء وضع هذه الروايات ، بحيث هي لا تعكس بالضرورة الحقيقة التاريخية بالمفهوم المعاصر لهذه الحقيقة ، ولكنها يمكن

كذلك أن تدل على أحداث معينة واكبت عملية الجمع والتدوين وجعلتها مشوبة ببعض النقائص مثل أي عملية بشرية .

أما النص الثاني وهو النوع العاشر «فيما نزل من القرآن على لسان بعض الصحابة» فإن السيوطي عوض أن يدرجه في المباحث المتعلقة بكيفية الوحي ، حيث أن الأمر يتصل بأقوال ينطق بها الصحابة ، وعمر بن الخطاب بالخصوص ، فإذا بالرسول يبلغها كما هي بصفاتها قرآنا ، نراه يعتبره نوعا من أسباب النزول ويفتتحه بحديث «ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه» (8) ، وهو حديث يذكر لا محالة بأية «نزله على قلبك» (9) - والخطاب فيها للرسول - وكذلك بأية «نزل به الروح الأمين على قلبك» (10) . وكان السيوطي شعر بما عسى أن يترتب عن هذا الحديث من بلبلة في ذهن المؤمن ، إذ هو يسوي بين الرسول وعمر في نزول الحق على قلب هذا وذاك من الناحية الشكلية على الأقل ، فإذا به يعدله بإردافه بقول مجاهد: «كان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن» فتكون المطابقة بين رأي عمر والقرآن لا بين قوله والقرآن .

والثلاث التي وافق فيها عمر ربه أو وافقه ربه ، حسب عبارة النص ، هي مرة اتخاذ مقام ابراهيم مصلّى وآية الحجاب والآية المتعلقة بنساء النبي إذ قال عمر : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن » (11) . فنزلت كذلك ، ومرة أخرى في الحجاب وفي اسرى بدر (12) وفي مقام ابراهيم . ثم تضيف رواية أخرى حالة رابعة حيث قال عمر لما نزلت آية « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » (13) : « فتبارك الله أحسن الخالقين » (14) فنزلت كذلك . كما يثبت السيوطي رواية منفردة أن عمر قال : « من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فإن الله عدو للكافرين » (15) فنزلت كذلك .

وتتعلق الأخبار الأخرى بسعد بن معاذ (أو بزيد ابن حارثة وأبي أيوب في رواية أخرى ) فإنه لما سمع ما قيل في أمر عائشة قال « سبحانك هذا بهتان عظيم » (16) فنزلت كذلك ، ثم بامرأة قالت يوم أحد : يتخذ الله من عباده الشهداء ، فنزل القرآن على ما قالت : ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ (17) ، وأخيرا بمصعب بن عمير يوم أحد أيضا فإنه كان يحمل اللواء ويقول : ﴿ ومحمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن

مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴿18﴾، فلم تنزل هذه الآية يومئذ حتى نزلت بعد ذلك .

ويختم السيوطي هذا النوع «بتذنيب» هام يربط فيه بين هذا الذي جاء على لسان الصحابة فكرسه القرآن وما ورد على لسان غير الله - كالنبي وجبريل والملائكة والعباد - «غير مصرح بإضافته إليهم ولا محكي بالقول» . ففي هاتين الحالتين توضع مسألة الحد الفاصل بين كلام الله وكلام غيره من البشر خاصة أو بالأحرى مسألة الصلة بين الكلام المفارق والكلام البشري .

وهي مسألة جديدة ، كيفما قلبتها ، بأن تطرح على بساط الدرس وتستدعي محاولات في الإجابة كما تترتب عنها نتائج خطيرة ، ولكن السيوطي يكتفي بتقرير الظاهرة ولا يستخلص منها شيئا .

وهنا كذلك لا يسع الباحث ، إزاء سكوت القدماء عن إثارة هذه المشاكل ، إلا أن يتساءل عن سبب إبراز دور عمر على حساب علي بن أبي طالب بصفة خاصة : ألا تكون هذه الأخبار من آثار الصراع السياسي الذي دار حول الخلافة ؟ ولكن كيف يفسر نزول القرآن على نحو ما قاله سعد بن معاذ أو ما قالتها امرأة غير



مسمأة أو قاله مصعب بن عمير؟ وكيف يفسر ما جاء في القرآن على لسان غير الله ولا يمكن أن يقدر فيه «قل» مثل «إياك نعبد وإياك نستعين»؟ .

هذه الأسئلة وغيرها تطرحها المادة التي يحتوي عليها كتاب الإتقان وغيره من كتب التراث وحتى من كتب الحديث المعترف بها كصحيح مسلم الذي ورد فيه ما يلي : «حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله (ص) وأقول : أو تهب المرأة نفسها ! فلما أنزل الله عز وجل «ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت» (19) قالت قلت : والله ما أرى ربك إلا يسارع لك في هواك» (20)

فلقد أثبتت هذه المادة حرصا من العلماء الذين قاموا بالتدوين ، ثم من علماء المسلمين عموما ، على عدم التفريط في أي شيء بلغهم عن فترة الوحي ، فهي عندهم فترة متميزة لم يكن يخطر ببالهم أن الأطراف المساهمة فيها يمكن أن يخطئوا أو يصدر عنهم ما من شأنه أن يعكس مصالح أنانية أو مواقف تخالف المثل الأعلى الإسلامي . لقد كانوا محصنين من الشك في

مثالية سلوك الصحابة والسلف الصالح بوجه عام ولم يكونوا يتصوِّرون مجرد التصور أن ما تتناقله الروايات المتعلقة بهذه الفترة التأسيسية إنما هو تمثل لها وليس الواقع التاريخي كما حصل بالفعل .

إن التراث الديني الذي اعتبرنا كتاب الإتقان أنموذجا له إنما هو في الحقيقة إنتاج المؤسسة الدينية بالمعنى العام للكلمة . وإذا كنا لاحظنا فيه ضعف النواة العقلانية وانحسارها فمن المرجح أن ذلك راجع أساسا إلى استبعاد تلك المؤسسة من دائرة السلطة السياسية الفعلية وتهميشها فأصبحت أكثر ارتباطا بالجمهور الشعبي وبثقافته البسيطة التي لا تحتفظ من الدين إلا بالأبعاد الرمزية والطقوسية .

وإذا كنا اليوم نتحدث عن إحياء التراث ونبحث عن المنهج الملائم لقراءته فإن من أؤكد الواجبات على الباحث أن يتخلص من النظرة الوثوقية التي ميزت هذا التراث أي أن يتحلى - على خلاف القدماء - بقدر كبير من التواضع في تقديم الحلول التي يرتئها للمشاكل التي يطرحها النص المقدس والنصوص الحافة به على الضمير المؤمن الحي . وبذلك نتجنب عملية التوظيف والاسقاط التي سلطتها مختلف الفرق

والمذاهب ويسلطها الناطقون باسم الإسلام على القرآن.  
وأخيرا فإن الإطلاع الواسع - لا المبتور - على  
التراث الديني من شأنه أن يوفر للقاريء المعاصر  
عناصر تعينه على التخلص من القراءة الأحادية الاتجاه  
للنص القرآني وعلى العودة الى ثراء هذا النص قبل  
تلكس التأويل وانغلاقه وقبل تحول الدين الى مؤسسة.  
إن الثقافات التي تشارك اليوم مشاركة فعالة في  
الحضارة الحديثة من أكثر الثقافات ارتباطا بتراثها  
وإحياء له ولكن على أساس الفهم الموضوعي وتفجير  
معانيه تفجيرا متواصلا . أما إذا اعتبر التراث شيئا  
ناجزا ومنتهيا وفوق النقد وإعادة النظر فإن ذلك لن  
يزيد الثقافة التي تعتبره على هذا النحو إلا تهميشا  
فتصبح هي بدورها ثقافة منتهية مآلها الاندثار لا  
محالة لأنها تكون قد أخطأت السبيل رغم صدق النوايا  
وطيب السرائر .

## الهوامش

- (1) « كل كمال ديني أو دُنِّيوي عَاجِلِي أو آجَلِي مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية ، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى » ، السيوطي ، **الاتقان في علوم القرآن** ، ط . المكتبة الثقافية ، بيروت ، 1973 ، ج 2 ، ص 175 .
- (2) سماه « مجمع البحرين ومطلع البدرين الجامع لتحرير الرواية وتقرير الدراية » . انظر **الاتقان** ، ج 1 ، ص 6 .
- (3) اثبتنا هذين النصين في ملحق هذا البحث . ومن المفيد الاطلاع عليهما قبل قراءة ما يلي من ملاحظات تتعلق بهما .
- (4) انظر مثلا **الاتقان** ، ج 1 ، ص 44 ، وما يليها ، ومصطفى كمال التارزي ، «الوحي وختم الرسالة في الإسلام» ، ضمن أعمال الملتقى الإسلامي المسيحي الثاني : **معاني الوحي والتنزيل ومستوياتهما** ، تونس ، 1979 ، ص ص 21 - 47 .
- (5) يقول السيوطي إن الصحابة «اختصوا بالفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح» ، **الاتقان** ، ج 2 ، ص 176 . فلا مجال إذن إلا للتسليم بما قالوا أو فعلوا كائنًا ما كان !
- (6) شرح الأصول الخمسة ، ص 601 .
- (7) ابن تيمية مثلا يقول : « واليهود حرفوا التوراة وكذلك الرافضة حرفوا القرآن » ، منهاج السنة النبوية ، ج 1 ، ص 6 . والطبرسي - وهو من علماء الإمامية في القرن السادس الهجري - يقول : « المستفاد من الروايات عن طريق أهل البيت أن القرآن الذي بين أظهرنا ليس بتمامه كما أنزل على محمد ، بل منه ما هو خلاف ما أنزل الله ومنه ما هو مغيرٌ محرّفٌ ، وأنه قد حذف منه أشياء كثيرة » ثم يضيف : « وأما اعتقاد مشائخنا في ذلك فالظاهر من ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني - طاب ثراه - أنه كان يعتقد أيضا التحريف والنقصان في القرآن » ، انظر مصطفى الغزالي ، «تشيع الطبرسي من خلال تفسيره لسورة النساء» ، **النشرة العلمية للكلية الزيتونية** ، عدد 4 ، سنة 67 - 77 ، ص ص 241 - 242 .
- (8) رواه الترمذي وأبو ماجه وابن حنبل . انظر ونسك ، **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي** ، ط استانبول ، تونس ، 1987 ، ج 6 ، ص 116 .
- (9) البقرة ، 2 ، 97 .
- (10) الشعراء ، 26 ، 194 .
- (11) التحريم ، 66 ، 5 .
- (12) حين اعترض عمر على أسر القرشيين مخالفا لما ارتأه الرسول في بادئ الأمر فنزلت الآية 67 من سورة الانفال 8 : « ما كان لنبي أن يسرى له أسرى حتى يُنْحَنَ في الأرض تريدون عرض

- الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . انظر مثلاً الواحدي النيسابوري ، أسباب النزول ، ط . بيروت 1978/1398 ، ص ص 160 - 162 وخاصة الرواية الرابعة .
- (13) المؤمنون 23 ، 12 .
- (14) المؤمنون 23 ، 14 .
- (15) البقرة 2 ، 98 .
- (16) النور 24 ، 15 .
- (17) آل عمران 3 ، 144 .
- (18) آل عمران 3 ، 144 .
- (19) الأحزاب 33 ، 51 .
- (20) الجامع الصحيح ، ط ، بيروت ، دار الأفاق الجديدة ، د . ت ، ج 4 ، ص 174 (كتاب الرضاع) .

**ملحق**  
**(النوع العاشر فيما نزل من القرآن**  
**على لسان بعض الصحابة)**

هو في الحقيقة نوع من أسباب النزول والأصل فيه موافقات عمر وقد أفردها بالتصنيف جماعة. وأخرج الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه» . قال ابن عمر « وما نزل بالناس أمر قط فقالوا وقال إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر » . وأخرج ابن مردويه عن مجاهد قال « كان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن » . وأخرج البخاري وغيره عن أنس قال عمر « وافقت ربي في ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وقلت يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر

والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب ،  
 واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه في الغيرة فقلت لهن  
 عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ ،  
 فنزلت كذلك . وأخرج مسلم عن ابن عمر عن عمر  
 قال : « وافقت ربي في ثلاث في الحجاب وفي أسرى بدر  
 وفي مقام ابراهيم » . وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس  
 قال قال عمر « وافقت ربي أو وافقني ربي في أربع  
 نزلت هذه الآية ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلاله من  
 طين ... ﴾ الآية ، فلما نزلت قلت أنا - فتبارك الله  
 أحسن الخالقين فنزلت فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » .  
 وأخرج عن عبد الرحمان بن أبي ليلى أن يهودياً لقي  
 عمر بن الخطاب فقال : « إن جبريل الذي يذكر  
 صاحبكم عدو لنا فقال عمر مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ  
 وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ، قَالَ  
 فنزلت على لسان عمر » .

وأخرج سنيد في تفسيره عن سعيد بن جبیر أن  
 سعد بن معاذ لما سمع ما قيل في أمر عائشة قال:  
 «سُبْحَانَكَ هَذَا بِهِتَانٌ عَظِيمٌ» فنزلت كذلك . وأخرج ابن  
 أخي ميمى في فوائده عن سعيد بن المسيب قال: «كان  
 رجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا سمعا شيئاً من ذلك

قالا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ - زيد بن حارثة وأبو أيوب - فنزلت كذلك». وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: «لما أبطأ على النساء الخبر في أحد خرجن يستخرن فإذا رجلان مقبلان على بعير فقالت امرأة ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: حيّ. قالت: فلا أبالي، يتخذ الله من عباده الشهداء». فنزل القرآن على ما قالت: ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾. وقال ابن سعد في الطبقات (أخبرنا الواقدي حدثني ابراهيم بن محمد بن شرحبيل العبدري عن أبيه قال: «حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد فقطعت يده اليمنى فأخذ اللواء بيده اليسرى وهو يقول وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرّسل فحنى على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول: وما محمد إلا رسول ... الآية، ثم قتل فسقط اللواء) قال محمد بن شرحبيل: وما نزلت هذه الآية: ﴿وما محمد إلا رسول﴾ يومئذ حتى نزلت بعد ذلك».

تذنيب: يقرب من هذا ما ورد في القرآن على لسان غير الله كالنبي عليه السلام وجبريل والملائكة غير مصرح بإضافته اليهم ولا محكي بالقول كقوله ﴿قَدْ جَاءَكُمْ



بصائر من ربكم... ﴿ الآية ، فإن هذا وارد على لسانه ﷺ لقوله آخرها « وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » وقوله ﴿ أَفَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْتَغِي حَكْمًا ... ﴾ الآية فإنه وارد أيضا على لسانه وقوله ﴿ وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ الآية وارد على لسان جبريل ، وقوله ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ وارد على لسان الملائكة ، وكذلك ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وارد على السنة العباد . إلا أنه يمكن هنا تقدير القول أي قولوا وكذا الآيتان الأوليان يصح أن يقدر فيهما قل بخلاف الثالثة والرابعة .

السيوطي ، الإتيان في علوم القرآن

ج 1 ، ص 34 .

(النوع السابع والاربعون في ناسخه ومنسوخه)

... قال أبو عبيد حدثنا اسماعيل بن ابراهيم عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال : « ليقولن احدكم قد أخذت القرآن كله وما يدرية ما كله قد ذهب منه قرآن كثير ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر » .

وقال حدثنا ابن أبي مريم عن ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: «كانت سورة الاحزاب تقرأ في زمن النبي ﷺ مائتي آية فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها الا ما هو الآن» .

وقال حدثنا اسماعيل بن جعفر عن المبارك بن فضالة عن عاصم بن أبي النجود عن در بن حبيش قال لي أبي بن كعب : «كأين تعد سورة الاحزاب ؟ قلت اثنتين وسبعين آية أو ثلاثا وسبعين آية قال : ان كانت لتعدل سورة البقرة وان كنا لنقرأ فيها آية الرجم . قلت وما آية الرجم ؟ قال : اذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم» .

وقال حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن خالد ابن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن مروان بن عثمان عن أبي أمامة بن سهل ان خالته قالت: «لقد أقرأنا رسول الله ﷺ آية الرجم «الشيخ والشيخة فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة» .

وقال حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني ابن أبي حميد عن حميدة بنت أبي يونس قالت : «قرأ عليّ أبي وهو ابن ثمانين سنة في مصحف عائشة «إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا

عليه وسلموا تسليماً وعلى الذين يصلون الصفوف  
الأول» قالت : «قبل أن يغير عثمان المصاحف» .

وقال حدثنا عبد الله بن صالح عن هشام بن  
سعيد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي  
واقد الليثي قال : «كان رسول الله ﷺ إذا أوحى إليه  
أتيناه فعلمنا مما أوحى إليه . قال : فجئت ذات يوم  
فقال : ان الله يقول «إننا أنزلنا المال لإقام الصلاة  
وإيتاء الزكاة ولو ان لابن آدم واديا لأحب أن يكون  
اليه الثاني ولو كان اليه الثاني لأحب أن يكون إليهما  
الثالث ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله  
على من تاب» .

وأخرج الحاكم في المستدرک عن أبي بن كعب قال :  
«قال لي رسول الله ﷺ : «ان الله أمرني أن أقرأ عليك  
القرآن فقراً : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب  
والمشركين ) ومن بقيتها (لو أن ابن آدم سأل واديا من  
المال فاعطيه وإن سأل ثانيا فاعطيه سأل ثالثاً ولا يملأ  
جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب وان  
ذات الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية  
ومن يعمل خيراً فلن يكفره» .

وقال أبو عبيد حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة  
عن علي بن زيد عن أبي حرب بن أبي الأسود عن أبي  
موسى الأشعري قال : نزلت سورة نحو براءة ثم  
رفعت وحفظ منها (إن الله سيؤد هذا الدين بأقوام  
لاخلاق لهم ولو أن لابن آدم واديين من مال تمنى  
واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب  
الله على من تاب).

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري  
قال : «كنا نقرأ سورة نشبهها بأحدى المسبحات ما  
نسيناها غير أنني حفظت منها (يا أيها الذين آمنوا لا  
تقولوا ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون  
عنها يوم القيامة) .

وقال أبو عبيد حدثنا حجاج عن سعيد عن الحكم  
بن عتيبة عن عدي بن عدي قال قال عمر : «كنا نقرأ  
ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم» ثم قال لزيد بن ثابت:  
أ كذلك ؟ قال : نعم .

وقال حدثنا ابن أبي مريم عن نافع بن عمر  
الجمحي حدثني ابن أبي مليكة عن المسور بن محرمة  
قال : «قال عمر لعبد الرحمان بن عوف : ( ألم تجد

فيما أنزل علينا أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة ؟ فإننا  
لا نجد لها ) . قال : «أسقطت فيما أسقط من  
القرآن...».

السيوطي ، الإتيقان في علوم القرآن

ج 2، ص 25.

## المنهج الأنثروبولوجي في دراسة مصادر الفكر الإسلامي

المنصف بن عبد الجليل

- 1- قد لا نبالغ إذا رأينا في دراسة الفكر الإسلامي الحديث ما يعين على فهم :
- أ - تمثل الضمير الإسلامي الحديث لموروثه الديني والثقافي ووجه توظيفه في الإجابة عن القضايا الحادثة؛
- ب - سلوكات الأجسام الاجتماعية الإسلامية ؛
- ج - بنية «الدولة» الإسلامية ؛
- د - فلسفة التشريعات وما تحميه من سلطة في تلك البلاد ؛
- هـ - المشاريع النهضوية المستقبلية التي ينادي بها الإسلاميون حيثما كانوا (1).

- لذا احتاج الباحث في المجتمع الإسلامي إلى الإجابة  
عن سؤالين مهمين أولهما : من أي أصل مشكلي يمكن  
البدء في نقد الفكر الإسلامي الحديث ؟  
ثانيهما : بأي منهج يفضل دراسة ذلك الأصل ثم نقد  
ذلك الفكر ؟

نجيب عن السؤال الأول في غير ما تردد بأن  
الأصل المشكلي هو المصادر الأولى التي استلهم منها  
الفكر الإسلامي رؤاه المتميزة . تلك المصادر هي التي  
قصدناها بـ «النص الإسلامي» وبه نعني بدء  
نصوص الوحي و«الشبيهة بها» ، وسنبين لاحقا  
حدود هذه المصطلحات .

أما الإجابة عن السؤال الثاني فأشد تعقدا وأدق  
خطرا ، وذلك لأن المنهج هو الآلة التي يشرح بها  
المحلل جسم النص ، إلا أن تلك الآلة إنما هي جماع  
عدد المفاهيم والمتصورات التي تخبر بدورها عن فهم  
مبدئي للظاهرة التي تؤطر النص من حيث طبيعتها  
وحركتها ووظيفتها ... حتى إنه لا مهرب من أن يبنى  
كل منهج على أصل معرفي هو أصل الجدل بين

أصحاب المدارس والمذاهب قبل الخوض في طرق التحليل والنتائج .

2 - بأي منهج إذن يحسن أن نباشر «النص الإسلامي» فنتتبع قضاياها المشكلية استكشافا لـ«طبقات» المقالات التي أسست عليه ؟

لسنا نخفي تقديرنا للجهود التي قدمها بعض المستشرقين ونخبة من أهل هذا الدين في تحقيق مادة تلك النصوص الأولى (2) ؛ ولسنا نخفي أيضا احترازنا إزاء ما بلغته نتائج بعض الباحثين من التشكيك الكامل إلى حد الطعن في صحة ما أثبت أنه نص قرآني ؛ أو وثائق تعود إلى صدر الإسلام أو إلى ما قبله ؛ مثلما جاء في أعمال «كرون» و«مايكل كوك» (Crone ; Cook) (3) .

- وقد ذهب الدارسون في نقدهم لمصادر الفكر الإسلامي الأولى مذاهب منهجية شتى ؛ منها المقاربة المقارنة - الدينية ؛ ومنها المقاربة الفلولوجية ؛ ومنها المقاربة التاريخية ؛ ومنها أيضا المقاربة التمجيدية... إلا أن هذه المناهج لم تخل في غالب الحال من الفرضيات الأيديولوجية حتى إن عملا مثل ما قدم



«هنري لامنس» (Henri Lammens) لا يعدو أن يكون تزويرا للتاريخ (4) .

إن ما ندعو إليه في الفقرات اللاحقة هو :

- أ - مراجعة أصول مصادر الفكر الإسلامي الأولى ؛
- ب - تفكيك تلك النصوص من النسق الذي ركبها فيه الضمير الإسلامي أو الإستشراقي ؛ وذلك :
- ج - بوصلها بالحدث التاريخي ؛ والمحيط الجغرافي والنظام الاجتماعي - الثقافي والذهنية السائدة وقتها ؛ أي لا بد من تفكيك النص الديني في إطار كل الملابس العمرانية التي يمثل هو بدوره جانبا منها؛ حتى إذا كان ذلك:

د - ظهر النص الإسلامي إجابة عن أسئلة شتى طرحتها الثقافة في المجتمع العربي - الإسلامي الأول وذلك في بنيته السيميائية والأسلوبية معا . عندها فقط تتحول مصادر الفكر الإسلامي إلى «نص - مشروع» بعد أن عدها الضمير الجمعي «نصا» وحسب.

إنّ المنهج الذي ندعو إلى تطبيقه في دراسة مصادر الفكر الإسلامي الأولى إذن هو المنهج الأنثروبولوجي(5) ؛ ولكن دون ذلك عوائق جمة نحن واعون بها .

3 - لعلنا نجد في تحديدنا لمصطلحي «النص الإسلامي» والمنهج الأنثروبولوجي ما يبرر نشأة هذه العوائق واستبدادها أحيانا .

نعني بـ «النص الإسلامي» أربعة مصادر - أصول يكاد الفكر الإسلامي لا يخرج عنها : النص القرآني ؛ والسنة ؛ وتجربة الصحابة ؛ والإجماع ( على الإطلاق لا التقييد مبدئيا ) . وقد أجمالنا هذه المصادر في مصطلح يحتاج إلى شيء من البيان . لسنا نعني بـ «النص» المدونة ؛ فذلك أقرب ما تفيدُه العبارة . وإنما نقصد ما عناه الشافعي ( ت 204 هـ / 819 م ) به لما فرع البيان إلى ما جاء «نصا واستدلالات» (6) و«النص» في هذا السياق هو الحكم الذي نزل به كلام الله في القرآن أو على لسان نبيه ؛ لا يحمل على غير معنى أو هو «ما لا يحتمل إلا معنى واحدا لا يحتمل التأويل» (7) .

قد يوهم هذا التحديد بأن الإسلاميين لم يختلفوا منذ الخلافة الراشدة ونشأة الفرق في فهم تلك المصادر . وليس هذا صحيحا . وإنما عنينا موقف أولئك الإسلاميين من تلك المصادر ؛ والظن عندنا أنهم وقفوا موقفا واحدا حين اعتبروا أن تلك المصادر

قطعية الدلالة بينة الأحكام والشرائع تلزم السلف ما تنص عليه وتبينه ؛ وإنما الأصل في هذا الاعتبار حمل تلك المصادر على التوقيف وإلحاق مثل أحكام السنة وعمل الصحابة وإجماع «الأمة» بنصوص الوحي (8). والواقع - في نظرنا - أن الفكر الإسلامي قد لبس النص الموحى بالمحدث الثقافي لأن للثقافي سيادة تحتاج إلى شرعية ملزمة .

إنّ هذه القضية هامة لأنّها تتنزّل في إطار أعمّ هو محاوره النصّ الدينيّ للثقافيّ وهي مسألة يعين على حلّها بعض العلوم الإنسانية وخاصة منها علم الأنثروبولوجيا الثقافية - إن عدّ علما - .

ماذا نعني إذن بالمنهج الأنثروبولوجي ؟ قد لا يختلف من أهل هذا العلم إثنان على «أنّ الأنثروبولوجيا تشكل [إجمالاً] منهجا يسعى إلى تجميع المعرفة بالإنسان من كافة الجوانب ؛ وذلك بهدف تقديم فهم متكامل ومترايط عن الإنسان وحياته ونتاجه الحضاري في الماضي والحاضر ؛ ومن ثمّ يكون لديها القدرة على استقراء أنماط الحياة المستقبلية». (9) إلا أنّ هذا التعريف الفضفاض يحتاج

إلى بعض الضبط عند البحث في الظاهرة الدينية عموماً والإسلامية خصوصاً لأننا نطرق عندئذ باباً أخصّ يطلق عليه أهل الاختصاص مصطلح « الأنثروبولوجيا الدينية ». وتقدر هذه :

(أ) أن الظاهرة الدينية أو الممارسة الدينية حدث ثقافي؛  
(ب) جاءت لتجيب عن أسئلة ما انفكّ المحيط يطرحها على الإنسان ؛

(ج) فتتنظم لذلك داخل إنساق الإجابات الأخرى بنظام لها خاصّ ؛ (د) لتؤدّي وظيفتها المجتمعية والأديولوجية معاً ، (هـ) وبهذا التصوّر تصبح مسألة تأويل النصوص قضية شائكة دقيقة ؛ ليس لأنّ المؤول أو حتى المفسّر يعمل بآلته العمرانية ولكن لأنّ الملفوظ في النصّ الديني جزء من العقد الثقافي الذي يؤوي أهل التكليف ؛ ولا يخفى أنّ هؤلاء هم الذين يرتّبون ذلك العقد بما يقتضيه البحث عن التوازن والاستمرار . لهذا السبب احتاج الباحث إلى التأمّني في دراسة سيميائية النصّ الديني.

كيف الإفادة من هذا المنهج في دراسة «النصّ الإسلامي» ؟ وما هي العوائق التي قد تحول دون ذلك؟

#### 4 - إشكالية النصّ القرآني . (10)

نحن واعون بحدّة لفظة «إشكالية» في هذا السياق وذلك لأنها تعرض لموقفين اثنين هما - في نظرنا - من العوائق التي أشرنا إليها آنفا :

أولهما : موقف أهل التسليم والإيمان ؛ وهو موقف يقتضي بذل الجهد في الدفاع عن النصّ القرآني والتمجيد لكل سلطة تمحّضت لهذا الغرض ولئن بدا هذا الموقف مشروعا على الأصل ؛ فإنه لا حجة في تلبيس الدفاع عن فهم ما للنصّ القرآني بالدفاع عن الإسلام عموما وإنكار مقالات المخالف من أهل الإسلام ؛ سيما وأنه لا يمكن الحديث عن نص - كما - نزل . والظنّ عندنا أنّ الإسلام ؛ (عقيدة وثقافة وحضارة ) لا يمكن أن تمثّله فرقة واحدة أو مذهب واحد ؛ إنّما الإسلام الحيّ هو جماع مقالات الإسلاميين ؛ فإذا تصدرت مقالة غيرها فلا بدّ أن تكون الإجابة الأوفق عن سؤال التوازن والاستمرار في المجتمع الذي برزت فيه ؛ ثم لا يخفى دور السلطة السياسية في تسويد المقالة (مثال : محنة ابن حنبل ثم سيادة الأشعرية ؛ ومثل ذلك يمكن قوله في الخوارج بالمغرب ...) يجب الانتباه حينئذ إلى دور الذاكرة

الجمعية والضمير الجمعي والخيال الجمعي في تحويل  
المقالة أو المذهب من حجمه الفرقيّ إلى سلطة أنفذ  
تتولّى الدفاع عن الإسلام . إنّ موقف التمجيد يعود  
إذن إلى كلّ تلك «الأصوات» (voices) التي حلّلتها  
«كرابانزانو» (V. CRAPANZANO) وهي «الذات» و«الثالث»  
و«الرغبة» (11).

إلّا أن هذا الموقف لا يختلف عن الموقف الثاني ؛  
وهو أيضا عائق : ثانيهما : موقف أهل الطعن في  
موثوقية القرآن من أهل الاستشراق الدعاة وغيرهم .  
يروم هذا الفريق التشكيك في الأصل الذي تقوم  
عليه الذات الإسلامية عموما والعربية - الإسلامية  
خصوصا وبه تقوم حضارتها وتستشرف مستقبلها  
وفي هذا إجحاف محرج . بل ما من شكّ في أنّ  
دراسات قرآنية لـ «وانسبروف» (WANSBROUGH) تعتبر  
عملا نابيا علميا ؛ وكذا القول في دراسة «كرون»  
و«كوك» (12) على ما توهم به من جدية فائقة .  
والرأي أن مثل هذه الأعمال تمنع الاستفادة من البحث  
العلمي ، لأننا لا نريده بحثا «يضعه كفّار إلى  
شيعتهم» (13) .

ولسنا نودّ تعميم هذا الحكم بين عامّة

المستشرقين؛ فأمثال «هانس كونغ» (Hans küng) (14) رغم التزامه الدينيّ ، و«يوسف فان إس» (Joseph Van Ess) وقبلهما «شتروطمان» (Strothmann) (16) و«إفانوف» (Ivanow) (17) ينهضون دليلاً على عكس الرأى .

والمهمّ أنّ موقفي أهل التمجيد وأهل الطعن في موثوقية النصّ القرآنيّ معاً لا يصلحان أن يكونا مدخلا لدراسة النصّ القرآنيّ ؛ لأنّه نصّ مشكليّ تحتاج معالجته إلى أناة وصبر كبيرين ؛ وفكر نقديّ يخشاه أهل الموقف الأوّل ويلبّسه أهل الموقف الثاني بالأيدولوجيا .

ماذا نريد من دراسة القرآن بمنهج أنثروبولوجي إذن؟ لئن كنّا نطمح إلى فهم كلّ الأسئلة الثقافية التي طرحها المحيط على العربيّ والتنبيه إلى الإجابات المناسبة في كلّ صيغها (العقائد ؛ الأساطير ؛ النظام الاجتماعي ؛ المصاهرات ؛ نظام الموارثة ؛ علاقة الرجل بالمرأة ؛ نظام العمل ؛ المواسم والأعياد والأحتفالات ؛ المنوع والمباح ...) فنسترشد بذلك كلّه على تشخيص البنية العميقة التي يعمل داخلها العقل العربيّ -

الإسلامي ؛ لئن كنا نطمح إلى تحقيق هذا المشروع الضخم ؛ فإننا نكتفي هنا بإثارة ثلاث مسائل يعين المنهج الأنثروبولوجي على معالجتها وهي:

أ - إجراء اللغة أو ما يسميه د - صمود «التلفظ» في القرآن.

ب - العقيدة الأخرى في القرآن .

ج - نظام النصّ القرآني وسلطة التشريع .

### مسألة التلفظ في القرآن : لا حاجة للتأكيد على

أهمية هذا الجانب ؛ فيكفي أن يكون سببا رئيسا من أسباب التباين بين مقالات الإسلاميين (نقصد خاصة التأويل الشيعي الإمامي والفهم السني ؛ أما تأويل الغلاة مثل النصيرية والدروز فطريف سوسيوولوجيا لأنه يبيّن حدود مطاطية الدلالة إذا امتلأ التلفظ بهوم القلة المهمّشة ومعاناتها ! ) ؛ ويكفي أن يكون أيضا سببا من أسباب نشأة علم الكلام واتّساع مجالاته . وتزداد هذه الأهمية إذا قرّر فقهاء المسلمين أن القرآن كتاب أحكام وتشريع .

إلا أنّ التلفظ شيء من العقد اللساني الجمعي (هذا إن لم يكن شيئا من العقد الإجرائي أصلا ) حتى يتم



التواصل ؛ وما من شكّ اليوم في أنّ اللسان ظاهرة ثقافية كسببية ؛ مهما كابر أهل التوقيف ؛ فيمكن أن نخلص من هذه الملاحظة إلى أن إجراء اللغة عمل مجتمعيّ وظائفيّ ؛ نعني أنّه يندرج ضمن ما يحتاجه المتكلم من سائر اللوازم لتبليغ مسائله الحيوية . ومن تصريف اللّغة وإجرائها ينفذ الباحث إلى كلّ مشاغل الفرد في بعده الذاتي والجماعي . لهذا السبب لا تقطع دلالة اللّفظ أو الصورة أو الرّمز أو تداخل صيغ الخطاب ... إلّا من المحيط الذي احتاجها. فإذا كان هذا كذلك ؛ استقام أمر النظر في العقل العربي - الإسلامي من خلال التلفّظ في القرآن ؛ سيما وأنّ بعض أعلام الأنثروبولوجيا اللسانية يرون أن اللغة كائن ثقافي حيّ لا يتحول بتغيّر العمران وحسب ؛ وإنما يحدّد عقل المتكلم فهمه للعالم ومنزلته هو فيه (18) . إنّنا نلحّ على أنّ التلفّظ يبطن - في القرآن - غرض الجدل والمناظرة والمحاورة ؛ وهذه الأغراض كلّها لا تقوم إلّا باستحضار حجة الآخر المحاور وذاك جزء من تمثّل بنية عقله . هنا بالذات يظهر التداخل وذاك شكل من أشكال التناصّ (intertextualité) بين التلفّظ في القرآن وإجراء اللغة في المجتمع العربي إبّان الدّعوة الإسلامية.

لهذا وجب الانطلاق من سيميائية التلفظ عند الإقدام على دراسة أنثروبولوجية للقرآن ؛ دون أن ننسى أن إجراء اللغة في هذا النصّ مؤسّس على الجدل .

ترى ماذا يعني أن يكون القرآن نصّاً جدالياً ؟

**العقيدة الأخرى في القرآن : القرآن نصّ ديني .**

والقرآن نصّ جداليّ أيضاً . فلا مناص من البحث في : أ - عقائد العرب وأساطيرهم وأديانهم من غير القرآن ما وسع ويمكن أن تكون أدبيات الجدل بين أوائل المسلمين وغيرهم من العرب مدخلا مفيدا (19) مثلما يمكن الانتفاع بأخبار العرب التي دوّنتها الكتب التمجيدية اللاحقة ؛ على أن يتولّى الباحث حفر طبقاتها بأناة وحذر شديدين(20) .

ب - عقائد العرب من القرآن لنخلص إلى الإجابة عن سؤالين على الأقلّ : أولهما - كيف ردّ القرآن هذه العقائد ؟ (المهمّ هنا النفاذ إلى بنية الحجّة ) - ثانيهما ماذا ذكر القرآن من عقائد العرب ؛ وهل سكت عن بعضها ؛ ولم ؟ فإذا تمّ هذا وسع أن نقبّ مسألة محرّجة هي : هل قطع القرآن مع الفكر الدينيّ قبله قطعاً معرفياً ؟ أم هل تراه وظّف شيئاً من تلك العقائد حفظاً للتواصل ؛ ف «أسلمها» دون التصريح بأصلها؟

وبعد ؛ ماذا قال القرآن عن اليهودية والنصرانية  
والوثنية وغيرها من الأديان والعقائد ؟ كانت روايته  
انتقائية ؛ وليس هذا نابيا فيه فكذا كانت روايته لتاريخ  
الأمم الغابرة وأخبارها والسبب في هذا اثنان : أولهما -  
استنكاف القرآن من نشر تلك العقائد ؛ وهو الذي جاء  
لنسخها . (21) وثانيهما - تأسيس القرآن هذا الاختزال  
والانتقاء على «المعتبر - معروفا» ؛ ومثل هذا يحتاج -  
في الدراسة التي ندعو إليها - إلى معاودة نقدية وتركيب  
لأنه جزء من الخطاب القرآني . إن مثل هذا البحث في  
الفكر الديني عند العرب قبل الإسلام يخول أن نفهم  
نظام العقيدة التي يقدمها القرآن وعلة انتشارها بين  
جمهور العرب قبلا . وإن صحّ هذا بطل فهم الإسلام  
مفصولا عن الخطاب الديني السائد وقتها وتقرر  
بالضرورة إمكان الاستدلال بالقرآن على وظيفة السلوك  
الديني و«بنية المقدّس» عند العرب .

هكذا ساعدت مسألة «التلفّظ» وقضية العقيدة  
الأخرى» على تبين رأي نجمله في أن النصّ القرآني لا  
يفهم إلا بالمرجع الثقافي الذي ما انفكّ يحاوره (22) ؛  
ولعلّ لهذا المرجع شأننا في نظام النصّ القرآني وجانب  
التشريع فيه .

## النصّ القرآني وسلطة التشريع : شغل «البيان»

القدامى (23) والسبب أنّهم وجدوا القرآن نصا مشكليّ النظام معقّد البنية وقد تقرّر عندهم بالضرورة أنّه كتاب أحكام والظاهر أنّه لا تكليف إذا لم يبين الحكم ؛ حتّى إنّ الأمدي (ت . 631 هـ / 1233 م .) يذهب إلى أنه لا يتصور اشتغال القرآن على مشكل أو ما لا معنى له في نفسه كحروف المعجم في أوائل السّور (24) . إنّ مثل هذا الموقف يبحث عن نسق الدّلالة ودلالة النسق في النصّ القرآني . وإذا عدّنا ما عناه القدامى بوجوه البيان من تفسير واستثناء وتخصيص ونسخ ومشكل ومحكم ومطلق ومقيّد ومجمل ومفصّل وقراءات وترتيب السّور والآي ؛ وأسباب النزول ... علمنا أنّهم لم يخرجوا هذه الفروع عن قضيّة واحدة هي : ظاهرة تعارض النصوص في القرآن . إنّ دور ما أسموه بـ «علوم القرآن» يتمثّل في الاحتجاج على بيانيّة النصّ القرآني واستكشاف «نظامه الحكمي» إنّ صحّ التعبير ؛ والاحتجاج - بعلتهم هم - على أنّ كلّ ذلك توقيف .

وإذا كان موقف القدامى مقبولا ؛ أيّامهم ؛ فلأنّهم حاوروا المشكلة برؤيتهم ؛ فإنّه لا مناص اليوم من تفكيك إجابتهم والتنبية إلى المسافة الأنثروبولوجية بين

النص القرآني كما حدّد نهائياً وتفسير الفقهاء وأهل  
الأصول لنظامه . ولذلك لا بدّ من طرح هذه الأسئلة  
من جديد :

أ - ما هي حدود الفصل بين الوحي والتنزيل ؛ وما  
أهمّية هذه القضية في التشريع من النصّ القرآني ؟  
ب - ما هي حدود شرعيّة التشريع من المصحف الإمام  
وفي أدبيّات الشيعة الإماميّة - فيما يروي الكليني ( ت .  
328 - 29 هـ / 939 - 40 م . ) حديث عن «مصحف  
فاطمة» لا شيء فيه من قرآننا؟(25).

ج - ما شرعية الفهم الأحادي ؛ وفي النصّ القرآني  
سبعة أحرف نبّه بعض الباحثين المحدثين إلى أهمّيّتها  
في التشريع (26).

د - إلى أي حدّ يمكن التسليم بأحكام الناسخ والمنسوخ  
وأدبيّات الفقهاء في هذا الموضوع تدلّ على اختلاف  
شديد بينهم ، وأنّ المسألة مازالت عصيّة وكذا  
ستبقى؟(27).

هـ - ما السلطة التي نرجّح بها حكماً على آخر ؛ وفي  
الآي تردّد بين الإجمال والتخصيص أو الإطلاق  
والتقييد ... ؟

وكأننا نريد - في الواقع - أن ننتهي إلى سؤال جامع

هو: بأيّ سلطة قرّر السلف وجه تعالق النصوص  
القرآنيّة ونظّموا دلالتها ؟

لسنا ننكر أنّ الإجابة عن هذه الأسئلة عسيرة.  
ومع ذلك نجرؤ على المغامرة بتقديم مشروع إجابة  
تحتاج إلى مزيد من الاختبار . فإشكاليّة الفصل بين  
الوحي والتنزيل تعني بدء الفصل بين ما يسمّيه أهل  
الاختصاص «ماوراء اللّغة» (métalangue) واللّغة  
المجرّاة. ويعني تحوّل النصّ القرآني من المستوى الأوّل  
إلى المستوى الثّاني تحوّلّه إلى التلبّس بمحيط  
انثروبولوجي منظمّ هو محيط بلاد العرب وما فيه من  
تصوّرات ومفاهيم تبيّن النّظام الثقافي الذي «حاكه  
العربي حوله» (28). ومن هذا المدخل نعاود مسألة  
التلفظ وهي مسألة وثيقة الصّلة بما يمكن تسميته بـ  
«المصحف الموازي» الذي ذكره الكليني .

إنّا نكاد نقطع بأنّه لا وجود لنصّ قرآني آخر  
(29)، ولكننا نقرّ مع ذلك بإمكان الحديث عن «مصحف  
مواز» ، حسب التّصوّر الشيعي الامامي . ونعني أنّه لا  
يهمّ وجود نصّين مستقلّين أكثر ممّا يهمّ وجود تأويلين  
بمرجعين متمايزين للنص الواحد . والحال أن المرجع  
في التّأويل أوضاع المؤول الثقافية . فليس غريباً بعد

هذا أن تسع القراءات أحوال المحيط المتمايضة (30) .  
 بهذا كله تتسع آفاق النص القرآني وتزداد اتساعا  
 بقضية النسخ ، وهي مسألة شائكة تدلّ أدبيتها على  
 معاناة الفقهاء في فهم نسق النص القرآني . بم ترى  
 نعللّ تضخم عدد الآيات الناسخة والمنسوخة من 35  
 آية عند السدوسي ( ت . 117 . / 735 م . ) الى 198 آية  
 منسوخة عند ابن حزم الأندلسي ( ت . 456 / 1063 م )  
 و 249 آية منسوخة عند ابن الجوزي من بعده ( ت .  
 597 هـ / 1200 م . ) لتصبح مع السيوطي 20 آية  
 منسوخة (31) .

إنّ مثل هذا الاحصاء لا يفيد إذا لم تدرس الآيات  
 ولم يحدّد الجانب الاجتماعي الذي تعنيه . ولهذا  
 نقترح أن تدرس قضية الناسخ والمنسوخ دراسة  
 سوسيولوجية تبين تحول التشريع بتغيير أحوال  
 المجتمع . وإذا تم هذا علمنا أن عمل الفقيه وكذلك  
 المشرع ، عمل مجتمعي بالأساس لأنّ المجتمع هو الذي  
 يلحّ على السلطة بأسئلته الحيوية .

والذي نخلص اليه من هذه الاجابة أنّ القرآن يبقى  
 في النهاية «نصا - مشروعا» ( Texte - projet ) ، تتجدّد  
 أحكامه وتشريعاته في اطار مقاصده الكبرى ، كلّما

تجددت قضايا المجتمعات الاسلامية وحاوره «النص الثقافي» . ونعتبر جلّ الأحكام التي استنبطها أهل الفقه والأصول أجابة عن أسئلة أوضاعهم حفظا للتوازن والاستمرار . في هذا الاطار نفهم رأي ابن حزم الأندلسي حين قال : «فالتقليد كله حرام في جميع الشرائع ، أولها عن آخرها ، من التوحيد والنبوة والقدر والإيمان والوعيد والإمامة والمفاضلة وجميع العبادات والاحكام»(32)، حتى وإن كان المقلد من الصحابة ، لأن من قال : ان الصحابة رضي الله عنهم شهدوا الوحي فهم أعلم به» . فانه يلزمهم على هذا أن التابعين شهدوا الصحابة فهم أعلم بهم ، فيجب تقليد التابعين وهكذا قرنا فقرنا، حتى يبلغ الأمر الينا فيجب تقليدنا، وهذه صفة دين النصرى في اتّباعهم أساقفتهم»(33) ولننتبه الى أنه مهما حاول أهل الفقه والشريعة الاحتجاج على فهمهم لهذا النص الديني الفدّ بقرائن ، مثل أسباب النزول وغيرها ، فانما كانوا يبحثون في الواقع عن سلطة بها يشرعون لفهمهم ذاك حتى يسود ويسودهم ومن يمثّلون به . ولا أدلّ على ذلك من توظيفهم لأسباب النزول التي قررت لتركبّ فهما للآيات . والواقع أن أسباب النزول تأطير بعديّ للنص القرآني ،



ولا يخفى ما في هذه «البعديّة» من عمل للذاكرة الجمعيّة والضمير الاسلامي .

هل يمكن بعد هذا ، الحديث عن «ثقافية» في النص القرآني ؟ الاجابة : نعم ، ولا ريب ذاك الحيز منه هو الذي نسميه بـ«أنثروبولوجية النص القرآني» وهي ظاهرة تتجلّى خاصة في السلطة التي يقوم بها التشريع من النص القرآني والفهم بدءا .

5 - يقرّر أهل الاصول أن أولى تلك السلط هي السنّة . وفي القرآن ما يشير الى ذلك (سورة النساء،59)(34) . ولكن هذه السلطة بدورها مشكلية : لأنّ تركيب تجربة النبي في المدينة يحتاج الى دقّة وحذر شديدين ، اذ يجب الوقوف عند حدود الايديولوجيا في الخبر ، والفصل بين « ما يمكن أن يكون قد كان » تجربة المدينة وما يقدّمه الضمير الجمعي والذاكرة الجمعيّة والخيال الجمعي (35) عند المسلمين منذ زمان السيادة الى عهود الانحطاط (36) . والذي نقترح : أن ندرس تجربة النبي وما نسب اليه من الأحاديث والأخبار من خلال البحث في دلالة النظام الثقافي عند العرب أيام الدعوة : من خلال الأحلاف ونظام القرابة والمصاهرات ونظام

المعاش والسلوك الديني المبلور في العقائد والأساطير والقصص ... فإن أمكن ذلك استطاع الباحث أن يبني تجربة المدينة ويضمن عدم الانزلاق في متهات الأيديولوجيا . وبهذا يتبين الجانب السوسيولوجي في تجربة أوائل المسلمين وتوظيف الفقهاء المخصوص لتلك التجربة والأحاديث لتحديد دلالة النص القرآني . والرأى أن فهم القرآن بالسنة يعني - ضرورة - فهمه بنص مواز له هو ثقافي عميق التلبس بعبقرية المجتمع وأحواله . ومهما اعتبر الشافعي السنة كالقرآن (نعتبر هنا المشبه به أقوى من المشبه ، فكذا السنة دون القرآن قوة وحجية) ، حتى يوهم أحيانا بأنها مثيلته(37) فإنما ذلك للقول بالتوقيف في السنة .

ولا بدّ هنا من تدبّر أمره : لم منع الرسول أن تدوّن السنة على عهده وأمر بتدوين القرآن ؟ ثم متى كان تدوين السنة وفي أي ظرف وكيف تم ذلك ؟ إن الالتجاء إلى الإخبار عن الرسول كان حاجة مجتمعية تتمثل في استحضر سلطة مرجعية ضمار افتقدها الضمير الاسلامي للبتّ في شرعية وليّ الأمر ولم يكن الفقهاء والعظماء الأمدافعين عن ذات الرأى . ويصبح هذا الرأى هاما اذا حسبنا أن السنة (هكذا على

الاطلاق) إنّما هي كما تمثلها اللاحقون ونظموها وفق حاجتهم، فلا نظنّ بعد هذا أنّ مثل الباحث الباكستاني فضل الرحمان مخطيء تماما في نقده للسنة ، وإن هاجمه الفكر الاسلامي المتعصب .

6 - وتزداد القضية إذا رمنا النظر في المصدر الذي تقرّر منه السنة والأخبار المنسوبة الى الرسول : ذلك المصدر هو الصحابة ، ولا بدّ هنا من معالجة مسائل محرّجة ولكنّها أساسية في فهم مصادر التفكير الاسلامي : ولعلّه يحسن إجمال هذه المسائل في الأسئلة التالية :

أ - ما هي إشكالية الصحبة والصحابة ؟

ب - ما هي أهميّة الصحابة في فهم النص الاسلامي والتشريع الاسلامي ؟

ج - متى اكتسب الصحابة حجية ليصبح عملهم أصلا من أصول التشريع عند الكثير من الاسلاميين ؟ قلنا : إنّ هذه الأسئلة محرّجة لأنها تقلّب المسلّمات ظهرا لبطن وتجمع على الفصل بين ما يمكن أن يكون - حدث وما تتوارثه أجيال المسلمين . وقد شكّله المخيال الجمعي خاصة . وبعد ، فلعلّ أشدّ العوائق في دراسة نقدية لقضية الصحبة والصحابة رفض الضمير

الاسلامي لمثل هذه المسألة وظنّه أنه مهّد بها !  
والواقع أننا نريد عقلنة ذواتنا وفهمنا فهما لا تمجيد  
فيه ولا مغالطة ! لذلك ترانا منقادين إلى الاجابة عن  
هذه الأسئلة لأنها لا ترسلنا !

ما هي إشكالية الصحبة إذن ؟ الصحبة ملازمة  
النبي ما سمح الظرف . ويفترض الفكر الاسلامي من  
الصحبة أمورا جمة ستقوم بها حجية الصحابة في  
الضمير الاسلامي عموما ، وعند الفقهاء وإخوانهم  
الأصوليين خصوصا ، منها : اطلاع الرسول مرافقيه  
وملازميه على ما نزل عليه من الوحي قبل غيرهم  
(وتلك فضيلة ) ، والكشف عن معاني السور المنزلة  
وعلمهم بظروف النزول وأسبابه ومعرفته بتطور  
الوحي في الأحكام والتشريع (خاصة مسألة الناسخ  
والمنسوخ ...) ، الى جانب أنهم قد أوقفوا حياتهم  
لخدمة الدعوة . وهنا تطرح قضية الصحبة إشكالية  
مزدوجة : مسألة الشهادة من ناحية ، وتوسيع مصدر  
التشريع من ناحية أخرى ونعني بالأول : أنّ الصحابة  
شهداء على الوحي ومعنى الآيات بحيث لا يحسن  
تحويل دلالتها عن مواضعها . ونعني بالثاني أن  
الصحابة ملزمون - بصفتهم تلك - بإنجاز الأوامر

والنواهي ، فيعتبر عملهم - مبدئيا - إضافة مبينة لأصل الآي.

الأ أننا إذا توغلنا في البحث قلّ الاقتناع بهذا التبسيط(38). فمثل هذا التصور يفترض إدراك الصحابة لدلالة الآية والخبر المنسوب الى الرسول ... ولا شك أن الإدراك يستوجب الكثير من الشروط التي قد لا تتوفر جميعها أو أغلبها في الصحابي ، سيما وأن النقل كان شفويا ، فلذاكرة والثقافة أثر فيه . ومثل هذا الرأي يللم عدد الصحابة الذين يعتبرون حجة في نقل الدين (39) . ولنعد الى الكتب الستة الموثوق بها على الأقلّ : ترى لم هؤلاء وحسب هؤلاء هم جيل الصحابة كلهم ؟ لم وثقنا هؤلاء بأعيانهم ورددنا غيرهم ؟ ... ويزداد الأمر تعقّدا اذا فارقنا التصور السني الى الرؤية الشيعية لنصطدم بحجية أخرى و صحابة غير الذين رجّحتهم «الجماعة» !

يجب الاجابة عن هذه الأسئلة في غير خوف أو تردد . ويجب التفكير في فرضية بحث مفادها أن مسألة موثوقية الصحابة إنما هي قضية قياسية ، افتراضية، وضعها الوجدان الاسلامي لاحقا ، كما يأتي التنبيه الى ذلك فيما يلي .

هكذا تتعدد إشكالية الصحبة لتتلبس بالمسألة  
 الايديولوجية ، وهي التي انطلقت منذ وفاة الرسول .  
 والمهم أن مسألة الصحبة هي التي رشحت نفرا من  
 أوائل المسلمين ليكونوا مهمين في انجاز الدين وتحديد  
 أحكامه . هذا ما عناه سؤالنا الثاني المتعلق بأهمية  
 الصحابة في فهم النص الديني والتشريع .

قد لانبالغ اذا قلنا : ان كل الدين قد وصلنا عن  
 طريق هؤلاء . وصلنا النص القرآني مثلما وصلتنا  
 السنة لذلك لا مفرّ اليوم من دراسة متأنية ومعمّقة  
 لوضع الصحابة : الاجتماعي والاقتصادي والسياسي .  
 إنّ شخصية مثل شخصية عمر مازالت لم تدرس  
 دراسة علمية تتعالى عن الطرحين السني والشيعي  
 ليفهم عمله الواسطي في اطاره الصّحيح . وكذا الأمر  
 فيما يخصّ عليا ... ونعني أنّ مثل هذه الدراسة لا بدّ  
 أن تحيلنا على صفة عمل الفكر الاسلامي فتفهم هذه  
 الشّخصيات حالة جزئية من كلّ أعمّ ... والسؤال الهامّ  
 الذي نخلص اليه هو : الى أيّ حدّ نقل الصحابة أحكام  
 الدين وأنجزوها بواسطة أوضاعهم الثقافية  
 وقضاياهم، فوازنوا بين استمرار المصلحة وأحكام  
 الدين ، والإرث الحضاري الذي لا مخلص منه ؟ عندها

يمكن تقديم إجابة أخرى عن زواج المتعة أو القرن بين الحج والعمرة أو التراويح ، تختلف عن الاجابتين الايديولوجيتين : السنية والشيعية تنزل إجابتنا في إطار اشكالية أعمّ : جدلية النصّ الديني - و«النص الثقافي» !

مثل هذا الطرح يساعد على تحديد الفترة التي اكتسب فيها الصحابة حجية ، فعدّ عملهم أصلا من أصول التشريع الاسلامي .

لا شكّ أنه يجب البحث في أخبار فضل الصحابة التي أفردت لها كتب الحديث بابا خاصا (40) مثل أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم . (41)

إلا أنّي أريد أن أتوقّف عند حديث قلّما مرّ ولم يزعجني ، وأراني أجده في كلّ كتب الدعوة وخطب الجمعة ، ولا ينفكّ الضمير الاسلامي يردّه في غير ما اهتمام بخطورته ، وذاك هو : «انّ خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال عمران : فلا أدري أقال رسول الله (ص) ، بعد قرنه مرتين أو ثلاثا . «ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يتمنون وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السّمّن» . (مسلم ، IV. فضائل الصحابة (باب 52 )

عدد الحديث 213 / (2534) ط . 1964 .) ولست أودّ البحث في السند. فلا حاجة عندي به مادمت أودّ تقليب موضوع الحديث أصلا ! والأمر : أنّه اذا كانت حال القرن الرابع أو الخامس على ما ورد في الحديث، فما عسى تكون حالي أنا ابن القرن الخامس عشر للهجرة ؟ كيف يمكن أن أضيف الى هذه التجارب الاسلامية الفدّة السابقة تجربتي أنا ، وأحسب العزم فيّ يشدني الى أمل واسع مديد ؟ أين حقّي في الابداع الاسلامي ؟ أين دوري في التأسيس الجديد بعد الهزائم المتتالية التي تلاحقت عليّ ؟ وفي النهاية هل أنا مصادر لمجرد أنني لاحق ، ولجرد أنني خلف لو خيّرت في الأمر لفضّلت غيره ؟ حاشا أن يكون الاسلام هذا ! وحاشا أن يحكم علينا بالخيانة ولما نولد .

وإنّما للحديث غاية أخرى : أنّه يشرّع لسلطة الصحابة بعد وفاة الرسول أيام الخلاف الشديد الذي تمّ زمن ولاية الأمر وإمارة المؤمنين . ولئن شمل كلّ الصحابة / القرن ، فإنّه في الواقع يسند غرض أهل السلطة منهم ، ويشرع لأعمالهم لتظهر على الإصابة والتوفيق - مبدئيا - فليس غريبا بعد هذا أن تكون خلافة الأوائل راشدة ، ويهمّ ذاك التشريع فئة أخرى



من الصحابة : تفرقت في الأمصار لتكون نواة النفوذ السياسي والسلطة الدينية حيثما حلت . (42) وليس أمر هذا الحديث بالذات بمختلف عن أمر حجية الصحابة عموما ، فالأرجح أن اللاحقين قد اجتهدوا في إبراز تلك الحجية حتى :

أ - يشرعوا لما حدث بعيد وفاة الرسول ، ويصوبوه ،  
ب - ويوسّعوا أرجاء دلالة النص القرآني ، بالممارسة الإسلامية التاريخية ، وفي أعمال الصحابة إجابات أوفر عن قضايا المجتمعات الإسلامية اللاحقة ، ولما بطل اعتماد الصحابة مصدرا من مصادر التشريع الإسلامي بدون تنقيح واستدلال ، احتاج الفكر الإسلامي الى تأسيس «مفهوم الصحبة» وحجّية الصحابة .

وعندئذ تتضح أهمية العمل الذي أنجزه الضمير الإسلامي : لقد حولّ الوضعيّ التاريخيّ مقدسا ، فنمذج تجربة الصحابة وعدّها سلطة بها يتمّ للقرآن بيانه لأنّ الصحابة هم نقلة الدين ولأنه لا يجوز في العقل أن يخالف عمل الصحابي مقاصد الدين وأركانه . ولكنّ عمل الصحابي وأقواله ... أثارت الكثير من القضايا ، فكانّ تجربة الصحابة و«بيانهم» لم يعتبروا الا اذا ناسبنا نصّا (ويجب) أو دخلا في مفهوم آخر

سيتحول بدوره الى أصل من أصول التشريع ، ومصدر من مصادر الفكر الاسلامي الأولى : هو الاجماع .

## 7 - الاجماع :

يمكن معالجة مسألة الإجماع من خلال سؤالين اثنين يتعلق الأول بإشكالية الاجماع انثروبولوجيا ، ويهمّ الثاني زمن إستواء الاجماع سلطة سائدة في التشريع خصوصا .

تتحدّد اشكالية الاجماع من خلال حيرة الفقهاء والأصوليين عند تعريف الاجماع (...) ويتيح لنا ذلك أن نسأل : من أهل الاجماع ؟ وفيم الاجماع ؟ ولم الاجماع أو متى يكون ؟ وما المقصود «بالأمة» إذا أسس الفقهاء أصل الإجماع على حديث منسوب الى الرسول : إنّ أمتي لا تجتمع على ضلالة ( أخرج ابن ماجه - فتن - 8 ، الدارمي فتن 1 ) ، وعلى آخر يأمر فيه الرسول بلزوم الجماعة (43) .

تفيد كلّ هذه الأسئلة معنى هاماً هي اشكالية الإجماع: ذاك أنّ الإجماع هو «سلطة بشرية» تقرّر بموجبها حجّة النص المقدّس أو المُعَبَّرِ كهُ . ومهما تراءت لنا شدة ابن حزم (ت . 456 هـ / 1063 م .) في تقرير معنى الاجماع ، ودونه الشافعيّ قبله ، فإن

اجماع الصحابة أو عامة الناس على الخبر المنسوب الى الرسول ، لا يخرج عن دلالته التي بيّنا أنّها . واذا قرّرنا ذلك ، اعتبرنا الإجماع أصلا ثقافيا مباينا للتوقيف . (44)

على أنّه لا معنى لاعتبار الاجماع ( على الإطلاق ) إجماع الصحابة وحسب فمعنى الاجماع هنا الشهادة على النصّ . وكذا اعتبر اجماع أهل المدينة عند بعض الفقهاء حتى عدّ الاجماع الحق وما دونه لا وجه له . ونحسب أن اشكالية الاجماع لا تتجلى ما لم يقترن هذا الأصل بالاجتهاد وذلك ما قرّره أحد الأصوليين مثل سيف الدين الأمدي ( ت . 631 هـ / 1233 م ) حين قال - عن صواب في نظرنا - «الاجماع عبارة عن اتفاق أهل الحلّ والعقد من أمّة محمد في عصر من الأعصار على حكم واقعة من الوقائع» ( ج 1 . 196 ، س 3 ) ، ويعتبر أنّ سبيل المؤمنين الذي كلّفنا الله (النساء 4 : 115) باتباعه عندما أمرنا بلزوم الجماعة إنّما هو سبيل «أهل الحلّ والعقد في أي عصر اتّفق» (الاحكام . 201/1 . س 8) .

واذا تقرّر هذا ، ما شرعية التّكفير بالاجماع ؟  
اذا كان اجماع الصحابة مظهرا من مظاهر تمثّلهم

لأوضاعهم ، وصيغة من صيغ الإجابة عن قضاياهم برؤيتهم التي فضلوها على غيرها ، فإن إجماع أهل الحلّ والعقد - على حدّ تأويل الأمدي - يجذّر العمل الاسلامي في ملابسات التاريخ ، ولا يرتدّ به الى وهم الذاكرة . انّ هذا الاجماع هو : جملة قضايا المجتمع ، ومعاناة أهل العلم في الظفر بالحلّ ولكن ... هؤلاء العلماء مثبتون في نسق إجتماعي - سياسي - اقتصادي لا بدّ من البحث فيه لإدراك المسلمات التي قامت عليها آراؤهم والوجه الذي به تمّ إجماعهم ، والغرض الذي ييغون تحقيقه يجب هنا الانتباه إلى علاقة العالم بالسلطة من ناحية وعلاقة المصر حيث تمّ الإجماع بالسلطة المركزية بحيث تتجلى قضايا الأطراف ومسائل المركز .

والمهم أنّ «الإجماع» خاضع إلى بنية الفكر التي يقرّها نسق الثقافة في مجتمع من المجتمعات العربية الاسلامية . وإذا تبيّننا هذا ، علمنا أهمية بعض الأفكار التي قرّرها بعض الأصوليين مثل تحديد دلالة بعض النصوص القرآنية بالإجماع ، ونسخ الآية بالسنة والإجماع وتفصيل مجمل القرآن بالإجماع ... فإذا الرأي والعقل أصل الفهم ، والرأي أو العقل عندنا غير

**مفهوم واحد هو نسق ثقافي يجري على التواضع.** فإذا  
صَحَّ عندنا هذا ، علمنا أن حجية الاجماع لم يتقرّر إلا  
لاحقا ، عندما احتاج الحكم بالرأى الى سند يضمن  
سلطته ويحمي سيادته : تلك كانت وظيفة الاجماع .  
ماذا عن اجماع جميع الأمة ؟ لا شكّ عندنا أن ذلك  
مفهوم وهمي ، لأنه لم يحدث أبدا ! قد نجد اجماع  
علماء المصر الواحد والزمن الواحد ... أمّا اجماع الأمة  
بمثل هذا الاطلاق فيظلّ من المتصورات التي يحرص  
على نشرها المخيال الجمعي تحت سلطة الضمير  
الاسلامي الجمعي أيضا . لسنا نشكّ بعد هذا العرض  
في أنّ الاجماع يمثّل أصلا ثقافيا ، وكذلك مفهوم  
الصّحة وتأصيل عمل الصحابة ، بل تمتد الظاهرة  
الثقافية الى السنّة ، لتشمل القرآن في مسألة «التلفظ» و  
«العقيدة الأخرى» وسلطة التشريع ، ونقصد من هذا  
كلّه أنه لا سبيل الى فهم مصادر الفكر الاسلامي الأولى  
الآن بتفكيك النسق الأنثروبولوجي الذي انتظم داخله  
العربي - المسلم ، وغيره من الأجناس الأخرى لاحقا...  
وبعد ، هل فرطنا في القرآن والسنّة ... بمثل هذا  
التصور؟ الاجابة : لا . إننا نوكّد - على العكس من ذلك  
- أننا عقّلنا فهم النصّ الاسلامي ، واعتبرنا - كما اعتبر

سيف الدين الأمدى - أن قوله تعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » (الأنعام : VI : 38) ليس « المراد به بيان كل شيء ، وإنما نعلم عدم اشتماله على بيان العلوم العقلية من الهندسية والحسابية وكثير من الأحكام الشرعية (45) وبتقدير أن يكون المراد به بيان كل شيء ، لكن لا بطريق الصريح بل بمعنى أنه أصل لبيان كل شيء » (IV / 38 . الفقرة 1) .

ماذا يعني أن يكون القرآن أصلاً للبيان ؟ يعني ذلك أنه « نص - مشروع » كما أسلفنا .. آلة استثماره العقل العامل بمرجعه الثقافي المتلبس به ، .. لهذا السبب كان ذلك الأصل في خطابه الى عامة المتقبلين موصولاً بواقعهم المجتمعي ، فاحتجنا بالضرورة ، الى المنهج الانثروبولوجي في دراسة مصادر الفكر الاسلامي الأولى .

انّ هذا المنهج يمكن من :

- (1) تفكيك نظام الأحداث التاريخية ،
- (2) فهم المنطق الذي صاغه فيه غيرنا من السابقين ،
- (3) تركيب هذه الأحداث ثانية وفق قضايانا وأسئلتنا الحضارية المختلفة ، فاذا تمّ هذا كله علمنا علم اليقين
- (4) أنّ للانسان الكائن الثقافي العامل أثراً في كلّ ما

يحوك حوله، ومن ذلك فهمه لتراثه عموماً وتوظيفه له.  
 إن مثل هذا المنهج أيضاً يفضح سلطة  
 الايديولوجيا، ويساعد على استحضار الماضي حتى وان  
 كنا نعلم - كما نبهنا الى ذلك ويليام ماكسويل - أننا  
 «في حديثنا عن الماضي، نكذب مع كل نفس يصاعد  
 منا» (46) أو كما قال هارولد بنتر - عن صواب - : «ان  
 الماضي هو ما تذكره، بل ما تتخيل أنك تذكره، بل ما  
 تقنع نفسك بأنك تذكره بل ما تزعم أنك تذكره (47).  
 فاذا صحّ هذا عندنا، احتجنا الى معاودة النظر في  
 مشروع أكبر أحمد، الباحث الباكستاني (48) والتثبت  
 من مفهوم «الانثروبولوجيا الإسلامية» (Islamic anthro-  
 pology) لإحكام توظيف هذا العلم توظيفاً لا تعيقه  
 الايديولوجيا... وكذا الأمر في مفهوم أشمل ساهم في  
 بلورته باحثون معاصرون كثير منهم فضل الرحمان،  
 والفاروقي، وغيرهما وهو أسلمة المعرفة فلا نولي  
 حاضرنا أدبارنا ولا نمشي ظهرياً وبننا تلقّت الفرع الى  
 من ولى عسى أن يعود ولا حيلة ! (49)

(1) تتباين الرؤى النهضوية . قارن بين رؤية الاسلاميين بالولايات المتحدة ، و«النموذج الاسلامي التونسي» ، والاخوان المسلمين بمصر . راجع مثلا :

- a) **Islam : source and Purpose of knowledge** edited by I.I.I.T, VSA 1988  
 b) **Toward Islamization of knowledge**, edited by International Institute of Islamic Thought (I.I.I.T) Herndon (U.S.A.) , 1988 ,  
 c) Malcolm x, **Malcolm x speaks**, Grosse Press, New York 19 th ed 1982 ;  
 d) Akbar, Ahmed, **Discovering Islam : Making sense of Muslim History and Society** . New York, 1988.  
 e) M. Ben Abdeljelil, «Immigrant Islam» or «the Second Interpretation of the Self» . Paper presented at Joseph J. Malone Program in Arab and Islamic studies meeting - Tunis , June 16, 1988.  
 f) Bruno Etienne, **L'Islamisme radical**, Hachette, Paris, 1987 ; en particulier chap . VII, IX.  
 g) François Burget , **L'Islamisme au Maghreb**, ed. Karthala Paris, 1988.  
 احميدة النيفر ، «النموذج الاسلامي التونسي» ، مجلة 15 - 21 العدد 18 (فيفري 1989) . ص 14 - 17 . «القوميون الاسلاميون» و«تقرير شخصي إثر رحلة عمل ميداني بدمشق» ( صائفة 1988) .

(2) نعني مثلا أعمال المدرسة الألمانية التي تكاد تكون متخصصة في تحقيق النصوص القديمة دون أن ننسى شيوخ المدرسة الفرنسية أمثال بلاشير وبلا ومانسيون ، وكذلك نعني أبحاث مثل محمد الطالب ، وفرحات الدشراوي ، وأحمد شاكر ، واحسان عباس وأحمد أمين وغيرهم ...

(3) راجع : Patricia Crone et Michael Cook, **Hagarism, the Making of the Islamic World**, Cambridge University Press, NY 1977.

(4) راجع مثلا H. Lammens,:

- " Le Triumvirat Abou Bakr, Omar et Abou Obaida," in **Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth**, IV, PP. 113-44.  
 - " La République marchande de la Mecque vers L'an 500 de notre ère". in **Bulletin de l'Institut égyptien**, 1910, PP 23-54.  
 - " Le Califat de yazid Ier" in **Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth**, IV-V.



- "Ziad ibn Abihi, vice-roi de l'Iraq, lieutenant de Mo'awia ler." in la **Revista degli studi orientali**, IV. 1-139.
- Fatima et les filles de Mahomet, **Notes critiques pour l'étude de la Sira**, Rome 1912.

(5) في العبارة شيء من إجمال لا يناسب تباين المدارس الأنثروبولوجية . وإنما نرمي الى الاهتمام بالاصول التي تشترك فيها تلك المدارس . ولا شك في أنّ الافادة من أطروحات تلك المدارس الأنثروبولوجية أمر لا غنى عنه اليوم . ننبه الى : «الاتجاه التاريخي» / التجزيئي مع اليوت سميث ، و«المدرسة البنائية - الوظيفية» مع مالبينوفلسكي وراالكليف براون ، والاتجاه التاريخي - النفسي مع روث بيندكت ، والأنثروبولوجيا الجديدة (حسب عبارة ايزيك وولف ومن أهم اتجاهاته : البنائية الفرنسية مع كلودلفي شروس ، والانتوغرافيا الجديدة ، وما ينادي به الان كليفورد جيرتز في «الأنثروبولوجيا الرمزية» **Symbolic anthropology** (راجع . د . حسين فهيم «قصة الأنثروبولوجيا» - فصول في تاريخ علم الانسان . عالم المعرفة عدد 98 . الكويت 1986. الفصل الخامس ومواليه ص ص 149 - 243 .

(6) الشافعي ، الرسالة تحقيق أحمد شاكر ط . 2 القاهرة 1979 ، الفقرة 46 ، ص 19 .

(7) الجرجاني ، التعريفات . مادة : النص .

(8) نعني بنصوص الوحي القرآن ، وما تنزل من السنة منزلته مثل «لا وصية لوارث» وإن أنكر الشافعي أن تنسخ السنة القرآن والقرآن السنة ، ولا يهمل هنا اختلاف علماء المسلمين في حمل السنة على التوقيف والوحي .

(9) د . حسين فهيم ، قصة الأنثروبولوجيا (المرجع المذكور) ص 18 - 19 .

(10) أشار القدامى الى هذه المسألة عند النظر فيما أسموه بعلوم القرآن ، وقد تجلّت جوانب المسألة في اتجاهين مختلفين : اتجاه تمجيدي احتجاجي لم يجرؤ فيه العقل الإسلامي على النقد . واتجاه كلامي بذل فيه المعتزلة كل آلة وحيلة ، وهو اتجاه أقل ما يقال فيه انه اتجاه ثيولوجي - وجرؤ بعض المحدثين اليوم على معاودة المسألة . راجع خاصة : و . بلاشير .

**Lectures du Coran:** ومحمد أركون في كتابه

وعبد المجيد الشرفي «علوم القرآن» درس قدم الى طلبة التبريز قسم اللغة العربية سنة 1989 .

V. Crapanzano, **the self, the third, and Desire**, in **Psychological theories of the self** . edited by Benjamin Lee. Plenum Press. NY. 1979 PP.179-206. راجع (11)

**Hagarism** (Op. Cit) (12)

**Hagarism, p. VIII (This book is written by infidels for infidels...)** (13)

Hans Küng, **Le Christianisme et les religions du monde, Islam, hindouisme**. ed. Seuil. 1986. راجع (14)

Joseph Van Ess, "Muhammad et le Coran : prophétie et révélation", (15)  
"sunnites et chi'ites: Etat, droit et Culte" ; "Conception de Dieu et mystique musulmane, conception de l'homme et la société" ; In Hans Küng (op. cit).  
- "Das al-Irjā" in - **Arabica** N° 21- 1 Fevrier 1974.  
- "les Quadirites et la Ghaylāniya de Yazid III". **Studia Islamica** N° 31 1970.  
- **Some Fragments of the mu'aradat al-Qur'àn attributed to Ibn al-Mugaffa'**, Beyrouth 1986.

(16) راجع مثلا : تحقيقه كثير من النصوص منها : «سبيل راحة الارواح ودليل السرور والافراح الى فالق الاصباح المعروف بمجموع الاعياد» لابي سعيد ميمون بن القاسم. الطبراني. في «مجلة الاسلام» (**Der Islam**) المجلد 27 - هيمبورغ 1943 - 1944 ص ص 8 - 273

Ivanow , **A creed of the Fatimids**, Qayyimah Press, Bombay ، راجع (17)  
1936 ; **the alleged founder of ismailism**, Bombay, 1946 ;

Isma'ili Literature, A Bibliographical Survey, A -15 Teheran, 1963.

E. Sapir : **Le langage: introduction à l'étude de la parole**.: راجع خاصة (18)  
Traduction S.M. guillemin. Paris, Paillet 1953 ; aussi du même :  
**Linguistique**. Traduction Jean-Elie. Boltanski , Nicolle Sculé - Susbielles.  
Paris. éd. de Minuit 1968 (Collection le sens commun).

(19) ننبه الى ان تفسير الطبري يعجّ بهذه الإشارات، ويحسن الاهتمام بها لفهم :

1 - اطار الجدل العقائدي بين المسلمين وانباء العقائد الاخرى ،

2 - موضوع ذاك الجدل ،

3 - وحجة المتجادلين مصادر وبناء ! مثل هذا الجدل مصدر فذ لفهم عقائد العرب قبل الاسلام .  
وعقليتهم الدينية على عهد الدعوة الجديدة .

(20) يمكن الافادة مثلا من : ابن الكلبي ، كتاب الاصنام تحقيق احمد زكي - القاهرة 1924 ، ابن منبه ، كتاب التيجان ط احمد رباد ابو الوليد الازرقى ، أخبار مكة (تحقيق ملحسن، ط 5 ، مكة 1988) . السمهودي ، وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى تحقيق محمد عبد الحميد ط 3 ، بيروت 1981 ، الثعلبي ، قصص الانبياء ط 4 بيروت 1985) ، الكسائي ، قصص الانبياء (تحقيق اسينبرغ ليدن 1922) ، مثلما يمكن استثمار الابواب الخاصة بالعرب قبل الاسلام في كتب المؤرخين امثال الطبري وابن الاثير ، والمسعودي ، وابن خلدون وغيرهم ... وفي كتب المفسرين شتيت من الاشارات مفيدة للغاية.

(21) راجع خبر ضيق الرسول عندما رأى صحيفة غير قرآنية بيد بعض المسلمين ، ونهيه عن النظر في مثلها .

(22) لا شك أن في النص القرآني صدى لمحاورة الناس للرسول وكذا كان الوحي ملبيًا أحيانًا لمساءلة المسلمين وغيرهم من أهل الملل الأخرى . مثلاً ، مسألة الروح ، وامر ابن أم مكتوم ، والصلاة على الكافر ، وأسرى بدر ... والامثلة كثيرة في السيرة .

(23) راجع مثلاً ، الشافعي ، الرسالة . تحقيق احمد شاكر . ط 2 . القاهرة 1979 . ص ص 21 - 53 ، ابن حزم ، الاحكام في اصول الاحكام ، تحقيق احمد شاكر ط 1 . بيروت 1980 ، ص ص 80 - 95 سيف الدين الامدي ، الاحكام في اصول الاحكام ، تحقيق عبد الرزاق عفيفي ط 2 بيروت 1402 هـ ، III ص ص 25 - 51 .

(24) راجع الأمدي . المصدر المذكور ، ا ص 167 .

(25) « ... ثم قال : وأن عندنا لمصحف فاطمة ، وما يدريهم ما مصحف فاطمة (ع) ؟ قال : قلت . وما مصحف فاطمة (ع) ؟ قال : مصحف فيه مثل قرانكم هذا ثلاث مرات ، والله ما فيه من قرانكم حرف واحد . قال : قلت : هذا والله العلم ! » - الكليني ، اصول كافي . ط . طهران . د.ت . = ع ا ص 346 .

(26) راجع "A D.S Powers, "The Islamic Law of inheritance". Reconsidered, "A new Reading of Q :IV, 12B." in *studies Islamica*, Lv, pp, 61 - 94.

وقد نقده محمدّ اركون . واستثمره نتائجه انثروبولوجيا . راجع محمدّ اركون «الاسلام والتاريخ والحداثة» . الوحدة. السّنة 5 ، العدد 52 ، كانون II ، 1989 ترجمة هاشم صالح - الفقرة 21-24- الخامسة والسادسة ص 21 - 24 .

(27) اختلاف الفقهاء والإصوليين في الناسخ والمنسوخ امر لافت للنظر . ويمكن اجماله في اعمال الاعلام التاليين :

السدوسي ( ت . 117 هـ ) : الآيات المنسوخة ( 1 . م ) 36 ، ابن حزم ، ( ابو عبد الله محمد بن حمد ) ( ت . 320 هـ ) : ا . م . 198 . ابن سلامة ( ت . 410 هـ ) : ا . م . 237 ، ابن الجوزي ( ت . 597 هـ ) : ا . م . 249 ، السيوطي ( ت . 911 هـ ) : ا . م . 20 .

وقد يزداد الامر تعقدا اذا قلّبنا المصادر الشيعية وما دونها . لذا بطل اطلاق القول بالتوقيف في الناسخ والمنسوخ ، وصحّ النظر في سوسولوجية عمل الفقهاء في تمديد الناسخ والمنسوخ ، وتدعو هنا الى النظر في احوال المجتمعات الاسلامية وموضوع الاسئلة التي طرحتها في كلّ عهد مرّت به ، حتّى كانت الاحكام بالناسخ والمنسوخ مثلا ، جزءا من الاجابة الممكنة الى جانب اجابات اخرى من مداخل غير النسخ . بهذه المقاربة تتضح اهمية انثروبولوجيا النسخ .

(28) هذه العبارة لماكس فيبر (Max Weber) ذكرها كليفورد جيرتز (Glifford Geertez) في تعريفه للثقافة . راجع كتابه «تأويل الثقافات» , 1973, *Interpretation of Cultures* N.Y, P.5.

(29) نكاد نقطع بذلك ، لانه لو وجد نصّ غير ما بأيدينا لظهر الكثير منه في الجدل العقائدي الشيعي - السنّي، ولكن الشيعة لم تعتمد - فيما اعلم - الا النّص العثماني فيما ذهب إليه من الردود والمناظرات ، ولكتّنها على العكس من ذلك ، اعتمدت نصوصا من الحديث ، غير التي يحتجّ بها اهل الحديث والجماعة (اهل السنّة ) واجتهدت في استثمار مرويات جمة تسندها إلى الأئمة وخاصة منهم الباقر والصادق والرضاء ومرويات الكليني والشيخ المفيد وابن بابوية القمي . والمجلي مؤخرا ، شاهد على رأينا.

وانا قلنا هذا ، فأننا ننبه الى وجود بعض النصوص المعتبرة مقدّسة ومنافسة بالضرورة للنصّ القرآني . نقصد ما نشره سليمان الادني محدثا عن اسرار الديانة النصرانية. وفيه السور النصرانية ، وانا طعن النصرانية في عدالة الادني هذا ، وقتلوه جزاء ، فإنّ في مجموع الاعياد

للطبراني صدق لهذه السور التي نشرها المستشرق رينيه ديسو (René Dussaud) في كتابه «تاريخ النصرانية وديانتهم» (Histoire et Religion des Nosalris) Paris 1900 - pp. 162- 198.

راجع : سليمان الادني : الباكورة السليمانية في كشف اسرار الديانة النصرانية ، نشر جماعة التبشير ، بيروت 1863 ، أبو القاسم الطبراني ، مجموع الاعياد ، تحقيق شتروطمان في مجلة الاسلام (Der Islam) المجلد 27 - ميمبورغ 1943 - 1944 ص ص 8 - 273 .

(30) راجع الهامش 25 واذا كان هذا أمر القراءات ، فحال المتشابه او المشكل اوضح في فتح النص على تاويل بأوضاع المجتمعات الثقافية . وهو ما يبدو في رأي السيوطي حين قال معددا فوائد المتشابه (!) : «أنه لو كان القرآن كله محكما لما كان مطابقا إلا لمذهب واحد ، فكان بصريحة مبطلا لكل ما سوى ذلك المذهب ، وذلك مما ينفر أرباب سائر المذاهب عن قبوله وعن النظر فيه والانتفاع به ، فاذا كان مشتملا على المحكم والمتشابه طمع صاحب كل مذهب ان يجد فيه ما يؤيد مذهبه وينصر مقالته ، فينظر فيه جميع ارباب المذاهب ، ويجتهد في التأمل فيه صاحب كل مذهب.» الإتيقان في علوم القرآن ، بيروت . د . ت ، II ص 16-17.

(31) راجع الهامش 26 .

(32) راجع ، الإحكام في اصول الاحكام (الطبعة المذكورة سابقا ) VI : 150 الفقرة الثانية .

(33) المصدر السابق ، VI : 90 الفقرة الثانية .

(34) راجع الشافعي ، الرسالة (ط . المذكورة سابقا) ص 85 - 89 .

(35) مصطلح «المخيل» مفهوم استحدثه د. محمد اركون ، وهو مفيد للغاية في نقد الظاهرة الاسلامية . وأما مسألة الذاكرة - والذاكرة الجمعية فهامة للغاية للبحث في القضية ذاتها حول الذاكرة راجع مثلا .

- Michael M.J. Fischer, "Ethnicity and the post-Modern Arts of Memory " in **writing Culture, the poetics and politics of Ethnography**, edited by James Clifford and Georges. E. Marcus. Univ. of California Press, Berkeley 1986, pp 194-233.

- Stan Mumford, **Reflexivity and Historical Consciousness esp. Reflexivity and memory - Course on Symbolic and Psychological Anthropology**. Princeton 1987.

- Halbwachs, Maurice : "Les cadres sociaux de la mémoire" in **Travaux de l'année sociologique II** Paris 1925.

- Voir aussi Jean Louis le moigne, Daniel Pascot (édit) "Les processus collectifs de mémorisation (mémoire et organisation)" **Actes du Colloque d'Aix-en-Provence**. 1986.

- Voir essentiellement Yves Barel, "Mémoire collective et ruse sociale", p. 922 ; Claude Bruter, "Mémoire collective = Eléments de classification et esquisse de modèles", P. 30 - 35 ; Joutard, "Tradition arabe et mémoire sélective", p. 78-81 ; Abdelkader Hamdad, "Changement culturel de mémoire collective = la notion de compas socio-culturel", p. 99-105.

(36) لا شك أنّ عهد الانحطاط مازال مستمرا الى اليوم ، رغم المحاولات الجادة نحو الابداع . ذلك لأنّ الفكر العربي - الاسلامي مازال مكبّلا بهيمنة السلف على نحو أفقده غالب الاحيان الموقف التاريخاني الاستقهامي .

(37) راجع : الشافعي ، الرّسالة ص 85 - 86 ثمّ 32 - (الفقرة 96 = الحكمة هي السنة في قوله تعالى : «وانزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما (النساء : 113)» الاّ أنّه يعتبر أنّ السنة لا تنسخ القرآن ، ولا ينسخ القرآن السنة ، راجع الرّسالة : الفقرات 311 - 343 ، 572 - 574 ، 604 - 616 .

(38) لقد أفرد ابن حزم الاندلسي - عند ابطاله لاصل التّقليد - مقالا نقد فيه عمل الصّحابة نقدا طريفا من قبيّه ظاهري مثله ! وذهب إلى أنّه قد ثبت عنده «أنّ الصّحابة رضي الله عنهم لم يفتوا برباهم على سبيل الالزام ، ولا على أنّه حق ، لكن على أنّه ظنّ يستغفرون الله تعالى منه ، أو على سبيل صلح بين الخصمين ، فلا يجلّ لمسلم ان يحتجّ بشيء اتى عنهم على هذه السبيل .» (الاحكام VI ، 54) - في نقد الصّحابة وابطال تقليدهم راجع كامل الجزء السادس من الإحكام وخاصة الباب 36 ص 59 - 184 .

(39) حول عدد الصحابة الذين افتوا وأسمائهم . راجع ابن حزم الاندلسي المصدر المذكور سابقا V : 89 - 105 (الباب الثامن والعشرون : «في تسمية الصحابة الذين رويت عنهم الفتيا وتسمية الفقهاء المذكورين في الاختلاف بعد عصر الصّحابة رضي الله عنهم» .

(40) راجع مثلا : مسلم IV : ص ص 1854 - 1973 .

(41) يذهب ابن حزم الاندلسي الى أنها «رواية ساقطة» ، راجع نقده لهذا الحديث : الاحكام ، VI ص 82 - 83 .

(42) نعتقد أنّ هذا الحديث في فضل الصحابة يشرّع لسلطة نفر الصحابة الذين تفرقوا من الامصار ليكونوا المرجع الديني / الفقهي والسياسي حينما حلّوا . ولذا يسودون وتتضاءل امام حضورهم سلطة المحلي « في هذا الاطار نفهم مثلا رسالة بقية الشورى الى من بمصر من وجوه الصحابة يستقدمونهم أيام أحداث عثمان ! راجع ابن قتيبة ، الامامة والسياسة تحقيق طه محمد الزيني بيروت . د . ت . ا : 37 - 38 .

(43) راجع الحديث : نضّر الله عبدا ونقده في الرسالة للشافعي - ص 402 . الهامش عدد 1 وايضا : الحديث المنسوب الى عمر ونقده في الرسالة ايضا ص 474 . الهامش عدد 5 .

(44) يقول ابن حزم في معنى الإجماع : «قال ابو محمد : قال ابو سليمان وكثير من أصحابنا : لا اجماع إلا إجماع الصحابة رضى الله عنهم . واحتجّ في ذلك بأنهم شهدوا التوقيف من رسول الله (ص) . وقد صحّ أنّه لا إجماع إلا عن التوقيف . وايضا فإنهم رضى الله عنهم كانوا جميع المؤمنين لا مؤمن من الناس سواهم ، ومن هذه صفته فإجماعهم هو إجماع المؤمنين ، وهو الاجماع المقطوع به . وأما كلّ عصر بعدهم فأنما هم بعض المؤمنين لا كلّهم ، وليس اجماع بعض المؤمنين اجماعا ، أنما الاجماع اجماع جميعهم . وايضا فإنهم كانوا عددا محصورا يمكن ان يحاط بهم وتعرف اقوالهم ، وليس من بعد كذلك . (...) قال ابو محمد : «وأما من قال : إنّ اجماع اهل كلّ عصر فهو اجماع صحيح ، فقول باطل ، لما ذكرنا من أنّهم بعض لا كلّهم .»

(الاحكام ، IV : 147 ، 149)

أما الشافعي فيرى أنّ « من قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم ، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين ، فقد خالف جماعتهم التي امر ببلزومها ، وأنما تكون الغفلة في الفرقة ، فأما الجماعة فلا يمكن فيها كافة غفلة عن معنى كتاب ولا سنة ولا قياس ، ان شاء الله .»  
(الرسالة . الفقرة 1320 . ص 475 - 76 ) .

(45) ورغم هذا فالتفسير العلمي للقرآن مازال منتشرا ! انظر عبد المجيد الشرفي ، «مشاغل المفكرين العرب المحدثين: الاسلام والحداثة» (درس قدم الى طلبة المعهد الاعلى للتربية والتكوين المستمر - مارس - جويلية 1987) الفصل الثاني من القسم الاول - الهامش عدد 15 .

William Maxwell, **so long, see you tomorrow**, 1980, p. 29 ; "In (46) راجع : talking about the past we lie with every breath we draw ;

Harold Pinter, in Adler, **Printer's Night** : "a stroll down memory : راجع (47) lane," p. 462.

"The past is what you remember, imagine you remember, Convince your self you remember, or pretend to remember."

Akbar S. Ahmad, "Toward Islamic Anthropology", in **The (48) راجع : American Journal of Islamic Social Sciences (A.J.I.S.S.)**, vol 3, N°2, 1987 (pp. 181- 230) ; "Toward islamic Anthropology, Definition, Dogma and Directions", **I.I.I.T (The International Institute of Islamic Thought)**, Herndon, 1988.

( 49) حول هذا المفهوم «اسلمة المعرفة» او «اسلمة العلم» كما يقول فضل الرحمان -Islamiza-

tion of Knowledge )) راجع :

-Al- Faruqui, ed, **Islamization of Knowledge, general principles and Workplan**. I.I.I.T. Virginia. 1982 .

- Abu Sulayman , **A. Islamiyah, al- Ma'rifah**, I.I.I.T. , 1986.

- Fazlur - Rahman, "Islamization of knowledge" : A response in **A. J. I .S .S.** vol 5, N° 1, 1988, pp 3 - 11.

- Ilyas Ba - Yunus, Al-Faruqui and Beyond : " Future Directions in Islamiza- tion of Knowledge" in **A.J.I.S.S.**, vol 5, N°1, 1988, pp 13-28.





## جدلية النص والمنهج : آيات من سورة لقمان أنموذجاً

كمال عمران - الباجي القمري

يندرج هذا العمل في سياق المباحث التي تهتم بالفكر الاسلامي عموماً و«بالنص التأسيسي» خصوصاً. ولئن رمنا الخوض في مسألة قراءة النص الديني فلوعينا بأن المسلم المعاصر يحيا ظرفاً حضارياً متميزاً. فالتشكيلات الاسلامية المعاصرة ، تعيش ، تحولات اجتماعية واقتصادية وسياسية تتباين مظاهرها من صقع الى آخر لتباين الخصوصيات المحلية . فلقد أضحي « العالم الاسلامي » منفتحاً بالضرورة على دار الجهاد انفتاحاً مادياً تحول على الصعيد الاقتصادي أساساً الى عامل مؤسس لعلاقة تلازم بين الدارين . ولا يخفى أن هذا الانفتاح في وجهه الاول رافقه تواصل على صعيد البنية الفوقية .

فلقد باتت التشكيلات الاسلامية تتفاعل ومعطيات الانتاج الفكري البشري ، فكان التقاطع أحيانا أو المواجهة أحيانا أخرى بين ثقافة تركز أساسا على الوحي واطروحات تركز على العقلانية باعتبارها خطاب منهج ، وعلى العلمانية باعتبارها خطابا فلسفيا وفكريا ، وعلى التكنولوجيا باعتبارها خطابا علميا وتقنيا وتطبيقيا يتحول بمقتضاه العلم الى تطبيقات تساهم في تغيير رؤية الانسان للوجود وتنزيله منزلة جديدة . لقد ادى هذا التقاطع على الصعيدين الاقتصادي والفكري بحكم انتشار التعليم نسبيا الى خلخلة البنى الاقتصادية والاجتماعية والفكرية .

فظهرت تيارات فكرية متباينة هي نتاج تباين طبقي اجتماعي تشترك كلها في طرح مسألة التقدم . بيد أن الاختلاف إنما يشتد عندما يتعلق الامر بالمشروع والنموذج ، ولا شك ان التباين القائم بين كلمتي «النهضة» و «الصحوة» ، في الفكر الاسلامي المعاصر لتوضح الامر توضيحا . ولا يخفى ان تفكيك الاصطلاحين في مستوى الأصول للوقوف على مركباتهما الفكرية والاجتماعية ، سيبين ان التشكيلات

الاسلامية انما تعيش آن الازمة باعتبار الازمة اختلالا للنظام السائد والسعي الى ابداع نظام جديد يرتكز على توازن جديد تتبدل بمقتضاه العلاقات بين الأطراف الاقتصادية والاجتماعية ، وتبعاً لذلك سيقوم توازن جديد على صعيد البنية الفكرية . فلا غرابة والتشكيلات الاسلامية تعيش «وضع الازمة» على الصعيدين الجماعي والفردي ، وكذلك على الصعيد المادي والنفسى والثقافى ، ان تتمحور القضية في مجتمعات مشدودة الى الوحي مؤسسة عليه حول النصّ التأسيسيّ . لقد ادى انتشار التعليم ، والبحث ، وظهور الفئات المثقفة الجديدة الى خروج قضايا التفسير والتشريع من دائرة الفقهاء لتضحي امرا - هو بحكم الواقع - في متناول «المثقف» ، ذاك الذي يجد نفسه بحكم نوعيّة ثقافته ، وخصوصيات منهجه ، وطبيعة مصادراته ، اضافة الى الطرفين التاريخي والمكاني مدفوعا الى طرح قضايا الحضارية والدينية طرحا يخرج عن الاتباعية . ان الثنائية القائمة على عهدنا بين «الفقيه» و«المثقف» لَهِيَ الوجه الحقيقي للقضية فهما يمثلان مقاربتين متباينتين . اذ ان كل مقارنة انما هي في حقيقة الامر رؤية محددة لوضعية

الانسان في الوجود من خلال النص، ومنهج ، هو في الآن نفسه مساوق للرؤية .

ومهما كان تباين المقاربات فان المسألة تطرح على صعيد مصطلحين اثنين هما النص والقراءة .

عالج المسلمون القرآن [الفرقان / التنزيل / الكتاب / الذكر ] وهو «النص المقدس» باعتباره وحيا ، منزلا ، متسما بالاعجاز اللغوي . فالتنزيل والاعجاز أسا كل فهم للنص بمقتضاهما يخرج من دائرة النسبية الى دائرة المطلق . فأما مسألة التنزيل فلقد اثيرت متلبسة بتساؤل جوهري: هل ان لغة القرآن توقيف ام اصطلاح ؟ ولئن ذهب المعتزلة الى القول بالاصطلاح فان السائد لدى معظم علماء المسلمين بدرجات متفاوتة هو الإقرار بالتوقيف ولقد تعلقت هذه المسألة بقضية كلامية : هل أن القرآن أزلي أم مخلوق ؟ والظاهر أن معظم المسلمين أقرّوا بأن معاني القرآن أزلية لذا تبقى القضية محصورة في اللفظ المعبر عن المعنى . فتحقيق المعنى باللفظ هو القضية الرئيسية في نظر المسلمين والموقف منها هو الذي سيحدد عندهم طبيعة الفهم ، فالحنابلة يقرون ان القرآن مكتوبا

ومتلوا ومقروءاً ازلي وغير مخلوق ، وهذا الاتجاه ينحو الى تركيز معنى قدسية النص تركيزاً . في حين أن المعتزلة يناقضون هذا الموقف مناقضة فهو مكتوب ومتلو ومقروء مخلوق . والحقيقة ان هذين التوجهين يعودان الى ثنائية حاضرة في الفكر الاسلامي تتمثل في التباين القائم بين اهل «الرأى» واهل «النقل» رغم ان الاشعري حاول التوفيق بقوله : «إن كلام الله وهو كلام نفسي انما هو أزلي وغير مخلوق بيد انه من حيث هو لفظ مقروء ومتلو ومكتوب فهو مخلوق» .

وانطلاقاً من هذه المواقف ستتحدد طريقة التعامل مع النص القرآني فإن عدت اللغة توقيفاً كان الميل أشد الى التركيز في التفسير على المنحى اللغوي وخصوصاً البلاغي تأكيداً لمعنى الاعجاز الإلهي من خلال اللغة والى الاكتفاء بالأثر منها . وإن عدت اللغة اصطلاحاً كان النزوع أميل الى تأكيد المعاني عبر اللغة باعتبارها وسيلة لا غاية والى الانفتاح على التعامل بالرأى .

ان ارتباط عملية الفهم باللغة لم تجعل المفسرين في مأمن من ضرورة الخوض في علاقة «التفسير» ببعض

القضايا الكلامية الضرورية لكل تعامل مع النص الديني . والغريب أنه يندر أن نجد من شارحي القرآن من القدامى والمحدثين من رام وضع الأسس النظرية والمنهجية لعمله . لذلك ترانا نجد منهج تفسير القرآن بالقرآن أو تفسير القرآن بالأثر أو تفسير القرآن بالرأى، أو التفسير اللغوي الصرف أو التفسير البلاغي أو التفسير الفقهي . ولعله يعسر ان نعثر على تفسير لم يخلط بين هذه المداخل المختلفة أو بين بعضها على الأقل.

تشارك التفاسير على صعيد الإجراء في اعتبار النص متركبا من وحدات هي آيات قدرها النبي (صلعم) وان كانت الروايات قد اختلفت في تحديد بعض الآيات . ولذا عد تحديد الآية توقيفيا مثلما هو الشأن بالنسبة الى تنزيل الايات في السور وكذلك ترتيبها ولعل للبعد البلاغي دورا في تحديدها في غياب توفر تمام المعنى أحيانا . وقد ردت الظاهرة الى الاعجاز لانها ترجع الى محسنات الكلام . هكذا يكون النص القرآني قد تشكل حسب بنية معينة لم تراع تاريخ النزول وان كان الكثير من آي القرآن لا يفقه

معناه الآ بالسياق التاريخي الذي نزل فيه . ولعل هذا الأمر من أهم العوامل التي جعلت معظم «التفاسير» تسلك مسلكا خطيا فنحت غالباً الى الارتكاز على الجزئيات ، وكأن العملية أصبحت تفكيكا دون تأليف . ولعله تفكيك يعد النص مغلقا على نفسه ، فوق التاريخ. ولقد سلك المحدثون الطريق نفسها فكانت اعمالهم في معظمها مبنية على تفسير القرآن بالقرآن او عند الاضطرار بالسنة او السلف . ولم يشذ عن ذلك الا من حاولوا تفسير القرآن بالرجوع الى العلوم الصحيحة للوقوف على «اسرار الاعجاز العلمي» فنزلوا بالنص من «مستواه الإلهي الى مستوى الموضوع البشري وأدمجوا كلام الله في خطاب العلماء... وهل نحن نكرم القرآن حقاً ام نعبث به لما نحاول ان نجعل منه مجرد تنبؤ لنظرية نيوتن أو لامارك أو مندال أو انشطاين»<sup>(1)</sup> ومهما كان التوجه فإن معظم التفاسير حاولت أن توجد معنى للقرآن في اطار القداسة فلم نوفق الى بلوغ منطقته الداخلي العام.

ان تطور التشكيلات الاسلامية على الصعيد التاريخي وما ساوقه من تطور على صعيد البنى



الاجتماعية والفكرية والنفسية بحكم المؤثرات الداخلية والخارجية المتنوعة جعلت المسلم المعاصر يحيا وضعا مخصوصا ويتعامل مع مقدّساته بوسائل هي افران لوضعه البشري الجديد ، ونتاج لتراكم معرفي أضحي يشتمل وجها من وجوه شخصيته التاريخية في آن . لذا فان علاقة المسلم «بالنص التأسيسي» تتشكل عبر مستويين ، مستوى روحي تتبلور من خلاله شخصية المسلم المعاصر الروحية في ضوء مقومات الوضع الكوني المنزل فيه ، ومستوى تاريخي باعتبار النص المقدس ، انما هو تدخل الله في التاريخ . وبهذا سيكون النص التأسيسي ذا بعدين : بعد يوسمه القداسة باعتباره كلام الله ، وبعد بشري هو العنصر الذي سيتمثل النص . لذا فليست قضايا المسلم المعاصر في علاقته بالنص المقدس من جنس قضايا السلف ، التي كنا اثرناها وانما هي قضايا مخصوصة . فالنص مشدود الى التاريخ بأسباب النزول ونازع الى المطلق بالتركيب والمقصد . إن هذا التزاوج الاساسي يجعل من النص على صعيد اللغة مرتكزا على محورين ، محور الانية وتتلبس فيه الدلالة عبر اللفظ في سياق الفضاء والزمان اللذين نزل فيهما الوحي ، ومحور التاريخية

وتتلبس فيه الدلالة عبر اللفظ في سياق الفضاء والزمان في تطورهما . ولعل البعد الثاني هو الذي سيكسب النص شرعيته في الحاضر باعتباره نصا محتفظا ببيكارته متجددا على الدوام ، فليس هناك معنى اول ووحيد وانما هناك معان يستلهمها المؤمن من النص لان النص يتضمنها او يقصدها فيوحي بها . وبهذا يتشكل النص وحدة منغلقة على ذاتها باعتبار ان لها بداية ولها نهاية على صعيد النص من حيث هو وجود مادي ، وعلى صعيد التاريخ . ويتحدد من بداية الوحي الى نهايته . بيد ان هذا النص منفتح عبر مراجعه على نصوص دينية أخرى ، وعلى مراجع اسطورية ، وعلى قصة البشرية من خلال بعض القصص . فالنص على هذا الصعيد يتشكل عبر شبكة من العلاقات تخرج بنا عن اطار الآن والمكان ، لكنها تعود بنا في النهاية اليه . فكأن النص بهذا الوجه جامع بحكم انفتاحه «تاريخيا» أولا على البداية السحيقة وثانيا على النهاية البعيدة .

ولئن عد ترتيب وحدات النص لدى المفسرين ، قضية تخلصوا منها بالتأكيد على انها توقيف من النبي، فان القضية قد لا تكون ذات بال ان عدنا النص القرآني منتها بالصورة التي بلغنا بها ، وانما

الأهم الوقوف على طبيعة حدود الآيات باعتبارها وحدات مستقلة من الناحية الشكلية رغم انها لا تشكل احيانا وحدة معنوية او تركيبية او ايقاعية ولعل اعتمادنا على مفهوم الوظيفة قد يساعدنا نظريا على التعامل مع الظاهرة ويمهد لنا سبل استكشاف نسيج العلاقات التي تربط الاي بعضه الى بعض وتشد الاي الى عنوان السورة وتصل السورة بالسورة فيتراءى النص الاكبر المكتمل اذنا على صعيد الشكل وحدة مستقلة منفتحة على صعيد المعنى على غيرها من النصوص لاحتواء النص على سند من الاحالات فلا يُؤسَرُ النص تبعا لذلك في حدود اللفظ ومعناه الأول المقترن بالزمن الأول زمن الوحي ، وانما يتحرر عبر طاقة اللفظ على تضمن مستويات عدة من الدلالة من حدود الظرف وبذلك نستطيع المواءمة بين كلام الله وهو الوحي واللفظ الذي تحقق عبره هذا الكلام ، وهو لفظ متنزل في المحيطين التاريخي والثقافي . في هذا الإطار تطرح قضية القراءة .

تبيّن لنا من خلال ما سبق تمييز « النص المقدس » بحكم خصوصياته الذاتية ، وهو حياته المحيطة به والمساهمة في تحديد هويته ، وسيؤدي هذا التمييز الى

ان تطرح قضية القراءة طرحا يراعي هذه  
الخصوصيات .

لقد تعامل المسلمون مع النص القرآني انطلاقا من  
مستويين متباينين مستوى التفسير ومستوى التأويل.  
فالأول موصول الى الرواية والاتباع والسماع والظاهر  
واخبار عن دليل المراد (2) والثاني مبني على الاستنباط  
والدراية والباطن واخبار عن حقيقة المراد (3)  
والمصطلحان يطرحان منهجين مختلفين للنص الديني  
يعتمد الاول على الاثر وعلى الاكتفاء بالدلالة الاولى  
للنص وهي دلالة عادة ما تكون مشدودة الى سبب من  
اسباب النزول فيحصر التفسير او يكاد في الزمن ،  
ويرتكز الثاني على العقل لاستكشاف الكلي والمقصد  
لذلك نرى فلاسفة المسلمين يطرحون مسألة التأويل في  
علاقتها بالنبوة ويوجبون لفهم الشريعة التفلسف .  
ولقد ذهب ابن رشد الى «وجوب التماس تأويل ما لا  
يتفق من النصوص الدينية مع النظر العقلي ، ذلك لان  
من المقطوع ان كل ما ادى اليه البرهان وخالفه ظاهر  
الشرع إن هذا الظاهر يقبل التأويل حتى لا يصطدم  
والعقل» (4) . فمعاني القرآن عند هؤلاء ظاهر وباطن  
وحضورها بهذا الشكل ناتج عن اختلاف الناس في

العقول والوسائل . ولقد قسم ابن رشد الناس بسبب هذا الاختلاف الى مجموعات ثلاث : الخطابيون وهم الجمهور الاعظم الذين لا يطبقون الوصول الى التأويل الصحيحة والذين عليهم الايمان بظواهر النصوص... وأهل الجدل ومنهم أهل الكلام الذين وإن ارتفعوا عن العامة وفهموا ان هناك نصوصا من القرآن لا يمكن أن تؤخذ على ظاهرها ، لم يتمكنوا من وضع تأويل صحيحة ويقينية لهذه النصوص . وأخيرا البرهانيون بالفطرة وبالحكمة الذين يصلون الى المعاني الصحيحة بالتأويل العقلية (5). وبهذا يحصر التأويل في الفلاسفة فهم أهل البرهان لعمق النظر وصحة العقيدة والاخلاق السامية فهم الذين يؤولون النصوص دون اخلال بلغة العرب ، ودون اعتبار كل النصوص قابلة للتأويل فمنها ما ينبغي أخذه على ظاهره .

ولئن آثرنا تجاوز مصطلحي التفسير والتأويل الى استعمال مصطلح القراءة فلان التعامل مع «النص التأسيسي» لا يمكن ان يطرح في نظرنا على صعيد ثنائية الظاهر والباطن ، فالنص يتضمن ويحتمل نظريا بحكم ازليته عددا لا متناهيا من المعاني فسمه الاطلاق

فيه تجعله يستوعب قراءات . وفي هذه النقطة بالذات يقع التواصل بين كلام الله المقدس والعالم البشري فالوحي متجسما في اللفظ هو الكلام المنزل و«القراءة انما هي انجاز النص فهي التمثل البشري للوحي وليس لكل تمثّل الا ان يتلبس بمقتضيات الآن والمكان ومعطياتهما المتشابكة جبرا لا اختيارا .

ومن هذا المنطلق تطرح ضرورة حضور قراءة معاصرة للنص تسعى من طبيعة النص «الى المزاوجة بين البعدين الميتافيزيقي والتاريخي لنخلص الى طرح مسألة الكيان والتاريخانية بالنسبة الى المسلم معتمدة في ذلك على استغلال مسؤول للمعرفة الوضعية التي تمكن من ادراك للواقع والمعنى يختلف عن «الإدراك المتداول» وقد لا نتمكن من ذلك ما دمنا نخشى التعامل مع النص الديني بوسائل المعرفة التي توفرها العلوم الانسانية والاجتماعية الحديثة وخصوصا علم الاديان المقارن ، ولئن ذهب البعض الى ضرورة تأسيس القراءة من منطلق «نزع الميثية عن النص الديني بمحاولة انسنته بعلمنة القراءة»(6) فاننا نسعى الى إقامة قراءة تسعى الى مد جسر بين لغة الوحي ولغة العصر «فلا نترك التفكير العلماني يطغى على الوحي فيفقد الكتاب

المقدس معناه القدسي» ونفرغ الكتاب من محتواه الذاتي ونعوض الفهم القرآني بالفهم العلماني وندعي ان القرآن ينحصر معناه في المعنى العلماني . «فالخطر كبير اذ ينزل بالقرآن من مستواه الإلهي الى مستوى الموضوع البشري فيندمج كلام الله في خطاب العلماء» (7) . ولا يعني وعينا بهذا الخطر زهولنا عن نشأة ضرب جديد من التدين تلبس معه معنى الحداثة مرتبطا بوعي شديد بالماضي وبرزوخ احساس عميق بالمستقبل المتضمن لمعنى التجديد ولهذا يرجح ان تراعى كل مقاربة حديثة للنص التأسيسي مستويات ثلاثة في إطار السنة الثقافية فهي قيمة في بحث خصوصية القراءة :

- المستوى الفلسفي باعتباره الاطار الذي تتحدد بمقتضاه رؤية الانسان للكون تبعا للتقدم الفكري والمنهجي الطارئ على العلوم الانسانية ومن جملتها العلوم الدينية .

- المستوى العلمى الصرف المتمثل في الانجازات التقنية باعتبارها معبرة عن آليات ثقافية .

- المستوى التاريخي وفي سياقه تنزل التغيرات الطارئة على المجتمع باعتبارها إفرآزا حتميا لدينامية المجتمع

الداخلية في علاقة بالاطار الحضاري الانساني .  
ان هذا السند النظري الذي تتأطر عبره عملية  
القراءة هو في حاجة الى منهج اجرائي يراعي احترام  
النص التأسيس والنص الموازي وشمولية القراءة أي  
سعيها الى أن تكون «قراءة كلية ومقاصدية» تنطلق من  
التفكيك الى التحليل فألى التأليف عبر اللغة على صعيد  
مختلف الوحدات افقيا ثم عموديا وذلك بفهرسة  
المواضيع وبمراعاة البعد التاريخي لتشكل النص  
القرآني في المواضيع التي تستوجب ذلك ، ويوصل  
النص بغيره من النصوص عبر الاحالات التي يتضمنها  
لعقد مقارنات ترسخ النص في النص الديني الأكبر دون  
الذهول بداهة عن ضرورة وضع عملية القراءة في إطار  
الاطراف المشكلة للخطاب والتواصل .

ولقد اقدمنا انطلاقا من هذه المقاربة النظرية ومن  
هذه الأسس المنهجية على معالجة آيات الحكمة من  
سورة لقمان .

انطلقنا من ايمان بضرورة اعادة النظر في مسألة  
التفسير فقد ترك القدماء مدونة ضخمة . واعمال الرأي  
فيها فهما وتوظيفا عملية ممكنة . وقد انطلقنا من  
تفاسير هي تفسير الزمخشري وتفسير القرطبي



وتفسير ابن عاشور . ونعد هذه المراعاة للمدونة التفسيرية القديمة واجبا عند الانطلاق يمحضنا لنتساءل عن التفسير الجديد الذي يخاطب الانسان المعاصر . باعتبار ان التفسير القديم قد أجاب عن اسئلة القدماء في بنى عالمهم التقليدي ، وأن التفسير الجديد يخص بنى العالم الحديث في عصر عرف التصنيع والتكنولوجيا والاعلامية .

فعملنا سعي الى إثارة قضايا التفسير باعتماد مراحل أساسية هي :

- هوية لقمان .
- منطق آيات لقمان الداخلي : في سياق السورة .
- منطق آيات لقمان الداخلي : في سياق القرآن .

التقسيم	اسم لقمان	أصله	وضعه الاجتماعي	نبوته	عمله	السند
الكشاف	- ابن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته	(من بني إسرائيل) من أولاد آزر	أسود عتق	لم يكن نبيا بنبي خير بين الحكمة والنبوة	حكيم راع - حكيم	أكثر الاقارب ابن عباس عكرمة والشامي قتل
		سودان مصر	أسود عبد أسود عبد		خطاط نجار يحتطب	ابن المسيب مجاهد قتل قتل سعيد ابن المسيب
		السودان				

<p>- محمد بن اسحاق - قيل - ذكره السهيلي - وهب - مقاتل - الزمخشري</p>				<p>نوبي من أهل أيلة (من بني اسرائيل)</p>	<p>- ابن باعوراء بن ناحور بن تارح وهو آزر بن ابراهيم - ابن عتقاء بن سرون - ابن أخت أيوب - ابن خالة أيوب - ابن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته.</p>	<p>الجامع لأحكام القرآن القرطبي</p>
<p>الواقفي سعيد بن المسيب جمهور أهل التأويل عكرمة والشعبي القرطبي (الصواب)</p>	<p>مفتي فاض فاض</p>	<p>خطا منحه الله النبوة نبي حكيم</p>	<p>أسود مشفق</p>	<p>- من أولاد آزر من بني اسرائيل أسود من سودان مصر من بني</p>		

قاله ابن عباس	ابن عمر (عن الرسول) ذكرة ابن عطية - زاده الثعلبي قتادة	راغ	لم يكن نبيا الحكمة اختار الحكمة عل النبوة	الرجلين نو مشافر عبد	اسرائيل		
عبد الرحمن بن زيد بن جابر خالد الربيعي	الفسر أسانيد ضعيفة قيل	نجار		عبد			
بيت أنشدته ابن بري بعضهم أوهام بعض المؤلفين	رجل صالح حكيم			من السود	من بلاد نوبه من الحبشة		
الجمهور مالك		حكيم صالح					التحريروالتوير محمد العالم ابن عاشور
							ليس هو لقمان بن عاد... ويعرف ذلك بلقمان النسور له ابن اسمه اقليم اسم أبيها عوراء بلعام بن عوراء

<p>ابن عمر عن النبي (عن ابن عطية)      رأي بن عاشور      عكرمة و الشعبي      أهل التفسير والتاريخ</p>		<p>لم يكن نبيا      حكيم      نبي</p>	<p>عبد      عبد ابني      لحساس      وبنو لحساس      من عرب</p>	<p>في زمن      داود      (من بني      اسرائيل)</p>	<p>ابن أخت أيوب و      ابن خالته</p>
<p>بعضهم      ابن كثير عن مجاهد      قيل      ابن كثير عن ابن وهب</p>	<p>فاض      راع لغنم      نجار خياط</p>	<p>مجلة لقمان</p>			
<p>ابن اسحاق</p>					<p>علم مادته عربية      مشتق من اللقم      معرب</p>

ينطق الجدول عن مفاصل يمكن في ضوءها ان نستطلع خبر لقمان من خلال التفاسير عبر الزمان.

اسم لقمان : اتفقت التفاسير على انه ابن باعوراء واتفقت على انه ابن أخت ايوب او ابن خالته . وكل هذه الاسماء ترجع الرجل في الاصل الاسرائيلي . وهذه الحقيقة تمثل عقبة عند البحث عن منطقتها ضمن بقية الاخبار . ذلك ان الاتفاق في الاسم يمحض بدهاة لمعرفة الاصل . ولكن التفاسير لم تعدم التضارب بين الاسم والأصل . فاذا كان الاسم يؤصل في النسب الاسرائيلي بل في السراة من بني يهود ، فان الاصل يطفح عليه الاتجاه السوداني . وهذا التضارب يفرض اعادة النظر في الخبر من زوايا هي زاوية علم التاريخ وعلم الاجناس وعلم الاجتماع على وجه الخصوص .

والمسألة الثانية في هذا السياق تثار باحتشام ولكنها مهمة وتتمثل في نسب لقمان العربي ؟ لم يأت الخبر اثباتا لهذا النسب بل هو نفي . ولكن هذا النفي لافت . لان لقمان يخرج من التآحد الى الكثرة . وهي ظاهرة لها قيمتها انتروبولوجيا . فهي تأخذنا اخذا الى

حقل الاساطير وتثار في هذا المعنى اسطورة لقمان  
النسور فيصبح العمل المقارني ضروريا لنبحث العلة  
بين المعطي المقدس والمعطي الاسطوري

نبوة لقمان : جاءت الاسانيد على نوعين - الاولى  
متواترة تؤكد الحكمة وتخرج الرجل عن النبوة .  
والثانية تقرن النبوة بالحكمة .

وهذه الظاهرة تثير جملة من القضايا . منها ما  
يتصل بالاسانيد فهي بحاجة الى التجريح والتعديل .  
والوقوف عندها يراعي التطور الزماني والاختلاف  
المكاني .

ومنها ما يرتبط بالصلة بين الحكمة والنبوة . فقد  
لاحظنا أنّ جل الفقهاء يجمعون بينهما ويعتبرون  
الحكمة كما نص عليها القرآن هي السنة . فهل هذا  
الاقتران مخصوص بالنبي محمد ام هو ذائع عند  
الأنبياء والرسل . وإذا كان الفصل كما ذهب إليه  
المفسرون بالنسبة إلى لقمان فهل يؤكد ذلك ما ذهبنا  
اليه من توازي الحكمة الالهية بالحكمة البشرية. ولعل  
التفسير يجنح بالمسألة الى هذا التوازي وهو في الفضاء  
الايماي متكامل الاطراف .

## 1 - حكمة لقمان : منطق آيات لقمان الداخلي : في

### سياق السورة

يقول مسكويه في كتابه «تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق» وقد تبين للناظر في أمر هذه النفس وقوتها انها تنقسم الى ثلاثة أقسام أعني :

القوة التي بها يكون الفكر والتميز والنظر في حقائق الامور .

والقوة التي بها يكون الغضب والنجدة والاقدام على الاهوال والشوق الى التسلط والترفع وضروب الكرامات.

والقوة التي بها تكون الشهوة وطلب الغذاء والشوق الى الملاذ التي في المآكل والمشارب والمناكح وضروب اللذات الحسية. (8)

تتبعاً للحكمة في هذه القوى مكانة محورية ضمن تلاقح النفوس لأنّ البحث في الفضائل أو الرذائل يصور العلاقة بين النفوس على شكل تصاعدي وجدلي هو تصاعدي انطلاقاً من القوة الشهوية أو النفس النباتية فهي مدار الشهوة الى القوة الغضبية أو النفس الحيوانية وهي مدار الانفعال الى القوة الناطقة أو النفس العاقلة وهي مدار التعقل .



وهو جدلي لان مجموع الفضائل أو الرذائل ينطق عن التفاعل بين الصفات في النفس . فخمود الشهوة الى الجبن ، الى البله يفضي الى الانظلام وهي مجموع رذائل التفريط و العفة الى الشجاعة الى الحكمة تؤدي الى العدالة ومجموع الفضائل ، والشرة الى التهور الى السفه تفضي الى الظلم وهم مجموع رذائل الافراط .

ويتبين أن الحكمة هي المحور لانها غاية الفضائل بها تكتمل لتصل الى بناء العدالة . ولانها فضيلة العقل واعماله من جانب ونتيجة معالجة النفس النباتية والنفس الحيوانية من جانب آخر . فالحكمة تتولد عن العقل وعن الرياضة . ولا ضير أن نعد الحكمة مابه يتأهل الانسان للسيطرة على نفسه كما ينبغي متى ينبغي وكيف ينبغي . وقد دعا القرآن الكريم دوما الى اعمال العقل والنظر والتبصر(9) .

والحكمة حكمتان . حكمة تتبلور في أرضية اسلامية وأخرى تنشأ عن المجهود البشري الخالص . الحكمة الاسلامية مدرج مخصوص ينبثق عن التفاعل بين العبادات وأهدافها . لذلك فان هذه الحكمة متطورة في

شكل عمودي ومدار التطور على العلاقة التي يختارها الانسان بينه وبين خالقه . فقد أعطى الله الانسان القدرة على اختيار السبيل فان اختار انفتحت طرق بلوغ الهداية أو الضلال «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى». هذه العلاقة بين الانسان وخالقه تدرك بالتجربة وبالمران فضلا عن المعرفة والتعلم .

وحكمة ثانية تنشأ خارج العقيدة سواء في بعد ديني آخر وقد أثبت الاسلام أنه نسخ الاديان السابقة واستوعبها فالحكمة اليهودية خارجة عن العقيدة وكذلك الحكمة النصرانية . أو في بعد بشري خالص كالدهرية سابقا والتيارات الفكرية الفلسفية الحديثة كالداروينية والماركسية والوجودية . واللافت أن الاسلام منذ عهد النبي بل وتأسيسا على سيرته الزكية مارس مفهوم المغايرة . فهو وان أقر التباين بين الحكمة الاسلامية والحكم الاخرى ؛ لم يواجه الخصوم بالهدم والحرب ما لم يبدأ هؤلاء الخصوم بالاعتداء . فقد عايش النبي صلى الله عليه وسلم اليهود

والنصارى وكان يعرف المنافقين ولم يشنع عليهم الا  
إذا بدأوه بظلم. وكانت المواجهة في المغايرة لان ذلك  
يؤكد التنافس وقد اختار الاسلام مواجهة البناء من  
الداخل فكان حريصا على الاقناع أن مسؤولية الحفاظ  
على الملة موكولة الى المسلمين : وفي حديث السفينة (10)  
دعم لهذا الرأي ، فقد أثبت النبي صلى الله عليه وسلم  
بهذا الحديث مسؤولية الجماعة بعد أن أبرز في أحاديث  
أخرى المسؤولية الفردية . وفي صورة السفينة والخطر  
المحدق بها أشار الى أن النجاة أو الهلاك ، موكولان الى  
ارتقاء الجماعة الى المسؤولية . فالسفينة في كلتا  
الحالتين رهينة المسؤولية الجماعية . ولا نحسب أن  
الصورة بسيطة لنقف عند المسؤولية الجماعية فحسب،  
بل هي بليغة ترتفع بالانسان فردا ومجموعة الى تحمل  
أعباء الوظيفة الاجتماعية كما ينبغي . فهي حينئذ  
مسؤولية واختيار .

## 2 - القاعدة الايمانية

لا معنى للحكمة حينئذ خارج حدود الايمان . لذلك  
ذهب العلماء في تحديد معناها الى معانٍ شتى يمكن ان  
نؤلف بينها بأن نؤكد علاقة عضوية بين العلم والعمل.

فقد دعا القدماء الى التوفيق بين العلم والعمل وقد قال الشافعي : «الحكمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم» (11) وقيل إن الحكمة هي الفصل بين الحق والباطل ، وقالوا هي حكمة الشرائع وما فيها من وجوه المنافع والمصالح (12) وقد ذهبنا إلى بعد بشري في الحكمة هو فضيلة النفس الناطقة تأسياً بالفلسفة الاخلاقية القديمة واطمئنانا الى أن الله أودع الانسان مسؤولية الاختيار . فالحكمة هي اهتداء الانسان بمقتضى حرصه على رياضة نفسه الى الحقيقة وهي تتحدد - بما ينبغي ومتى ينبغي وكيف ينبغي وبالتالي بالزمان والمكان والحال . والحكمة في هذا السياق هي منطلق القاعدة الايمانية اذ ربط تعالى بين قوله ﴿ولقد أتينا لقمان الحكمة ان أشكر الله ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فأن الله غني حميد﴾ في آية ووصايا لقمان في الايات اللاحقات . فأدركنا أن القاعدة الايمانية وهي يطلبها الانسان لانها مادة تربوية ولانها منهج تربوي ، من الحكمة .

### البعد الايماني في حكمة لقمان .

ارتبط البعد التربوي في حكمة لقمان بتصحيح

العقيدة في البداية وقرن بين الشرك وهو كما ورد في الحديث يدب كدبيب النمل .

والظلم وهو مجموع الرذائل في جانب الافراط(13). فتصبح العبارة من هذه الزاوية بليغة تصل الى غاية الرذائل بالانحراف في العقيدة . واذا كان الشرك خفيا فهو يستوجب، ليكمل، الايمان ويتدعم بيقظة دائمة هي في نظرنا وعي ضروري متواصل يسعى اليه الانسان بعيدا عن التخاذل أو الانهزام وبعيدا عن الاستسلام لهوى النفس . فالنهي عن الشرك هو استدراج نحو معالجة النفس والاضطلاع بالمسؤولية الفردية . وليس من المبالغة أن نقول ان الشرك اسقاط للانسان في مرتبة الحيوانية وان الايمان ارتقاء به الى البشرية لان البشرية تكتمل بالوعي والوعي ينطق عن صحة العقل في الكائن الانساني . ويكتمل النهي عن الشرك في حكمة لقمان بالإحالة على عظمة الخالق وعلى صفتين فيه متكاملتين .

عظمة الخالق متجلية في علمه وصورة حبة الخردل في الصخرة أو السماوات أو في الارض تعبر عن هذا العلم الغزير الذي يربطنا بمفاتيح الغيب من جانب والذي يؤكد صفة الرعاية من جانب آخر . هي

عظمة الخالق وهي أيضا رعاية الربّ لذلك ألحت سورة الفاتحة على أنّ الله هو الرب (الحمد لله ربّ العالمين).

الصفة الاولى المقترنة بعلم الله ورعايته هي اللطيف . وهي صفة تحمل دلالتين ، دلالة السمو ودلالة الرقة ويجمع بين الدالتين معنى الرحمة .

والصفة الثانية هي الخبير . وهي صفة مشبهة تشير الى علم غزير ومعرفة شاملة ويضاف اليهما وقد يوهمان بالنظري دون العلمي ، الاختبار والتجربة . فالخبير عليم حكيم . واذا انضافت الحكمة الى العلم أصبحت في هذا السياق الالهية .

على أنّ هذا البعد الايماني وقد ابتداء بالدربة على العقيدة الصحيحة وانتهى الى الاخبار عن عظمة الخالق، بَطْنُ دعوة الى الاحسان للوالدين دون الخروج عن الخط العقدي الذي دعا اليه . وكأن الدعوة الى الاحسان للوالدين صورة من الدعوة الى الايمان الحقيقي .

فالانسان يعاشر والديه وله أن يطيعهما كما له أن يعصيهما . وهما في مستوى الرمز يمثلان سلطة أولى يلمسها الانسان اختياريا منذ نشأته وله أن يرتبط بها على وجه التعامل الوجداني والألفة والمحبة وله أن يعلن

عداءه ونكرانه . ان التوصية بالوالدين في هذا السياق رياضة للنفس على الطاعة في سياق الانفعال البشري السامي أي في معنى تهذيب النفس للتعلق بسلطة - فعلية أو شكلية - تعلق محبة . وتصبح هذه التوصية مطية الاختيار الاعظم وهو وجه العلاقة بين الانسان وخالقه ، على وجه الشرك وهو ظلم عظيم أو على وجه الإيمان وهو انفتاح على عالم الملكوت .

في البعد الايماني حينئذ معنيان من الدربة . دربة النفس في قواها الباطنية على استلهاهم سبيل الايمان بالفطرة . ودربة الذات في سلوكها وأقوالها وأفعالها وأحوالها على حسن معاشرة الوالدين تأكيدا للعلاقة البشرية الأليفة وهي اختيار يمهد أو يدعم العلاقة بين الانسان وخالقه .

### 3 - الإيمان الفعلي :

رمزت آيات حكمة لقمان الى الإيمان الفعلي بأمر يدعو الى إقامة الصلاة في البداية . واللافت أن الآية لم تأمر بالصلاة بل أمرت بإقامتها بما تفرضه الإقامة من معاني البناء والتشييد وفي ذلك إشارة الى نوعين من الصلاة ، صلاة الساهين(14) وصلاة

المستيقظين(15) . وصلاة الحركات كنقر الديكة وصلاة العبادة . الصلاة الاولى أفرغت من معانيها الحقيقية وهي تدريب الانسان على الاستقامة بالانضباط في الهيئة بالطهارة وفي الوقت بالمحافظة على أوقات الصلاة وفي التقوى بالخشوع وهو الحرص على التدبر أثناء الصلاة .

ان اقامة الصلاة في حكمة لقمان هي نتيجة مباشرة الايمان الناضج كما ورد في العنصر السابق . وهي في نظرنا الوسيلة التي ارتضاها الخالق لعباده حتى يروّضوا نفوسهم على التسامي . لذلك فإقامة الصلاة هي فريضة وهي أيضا منهج لتربية الانسان فهو ما ان يقبل على صلاته حتى يتمحض لمحاسبة نفسه وفي السنة وفي الاحاديث الشريفة ما يدعم هذا المعنى.

ثم رتب العلاقة بين الصلاة في حالة اقامتها والامر بالمعروف والنهي عن المنكر لنفهم أن الثاني وليد الاولى . فنحن من حيث منهج الافصاح عن حكمة لقمان ننتقل من السبب الى النتيجة بصفة تدريجية حتى ندرك أن الكل متكامل وأن الإغضاء عن حلقة من السلسلة إفساد عميق .



على أن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس قضية قولية كما يتبادر الى الفهم . بل هو بناء وفعل(16) .

ليس الامر بالمعروف والنهي عن المنكر كلاما يقوله الانسان عندما يرى فسادا في الفعل أو يسمع فاحشا من القول . بل هو في سياق هذه الآية وفي نطاق هذا البعد التربوي عمل وإنجاز . وهو يضطلع بمهمتين . المهمة الاولى هي المحافظة على كيان الدين : المحافظة على عناصر الإيمان الستة المحافظة على النظم المنبثقة عن الشريعة ، فهو بمثابة الدعامة لهيكل الدين ، المهمة الثانية هي تحقيق الخلافة فوق الارض . لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فعل يراد به تركيز مشيئة الله في عباده وفي الكون . فتتخذ الظاهرة بهذا التوظيف بعدا تربويا ذا بال اذ هي مقياس لتجسيم القيم الاسلامية أو للخطب فيها (17).

وتنجم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نتيجة طبيعية اذا قسناها الى اقامة الصلاة والأمر بالمعروف، وهي الصبر . لأن الصبر يصيب عباد الله امتحانا لهم وتثبيتا ودعما لإيمانهم . ولا يقوى على هذا الصبر الا مقيم صلاة وأمر بالمعروف . هو الصبر

الذي يحس به صاحبه أنه انسان في حالات ضعفه وفي حالات قوته ، في حالات خوفه وفي حالات شجاعته . وقد امتحن الانبياء وعلى رأسهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ووجدوا في الصبر عزاء .

#### 4 - السلوك الايماني :

انتهت حكمة لقمان الى السلوك الفردي في صلب الجماعة . فقد بدأت الحكمة بالعلاقة بين الله والانسان ثم مرت الى اقامة الصلاة وما ينتج عنها من بناء فعلى للايمان ثم انتهت الى السلوك وهو بهذا الترتيب نتيجة نهائية هي «تاج الايمان لوصفه اقرارا باطنيا وفعلا ظاهرا . فالسلوك في سياق التربية الاسلامية يتميز بانبثاقه عن القاعدة الايمانية بوجهيها النظري والعملي. وهذا السلوك الايماني ركز على البعد النفسي لنصل الى تأكيد الخيط الرابط بين ثنايا وصايا لقمان كلها وهي تزكية النفس .

فالنفس هي الأمانة التي أودعها الله للإنسان وهو مسؤول عنها ، وقد وفرت آيات الحكمة المنهج الذي ارتضاه الله لتربية النفس فبرزت خصائص التربية الاسلامية من حكمة لقمان وقطب الرحى فيها هو

النفس . واللافت أن منهج التربية التزم أموراً يجدر أن نراعيها .

- الوقوف عند الداء الأصلي وهو الشرك والدعوة الى معالجته .

- الاقناع الوجداني والمنطقي باستدراج لقمان لابنه نحو التقطن الى قوة الله وعظمته ونحو الترابط العاطفي الأليف مع الوالدين .

- توفير الآلة التي بها يقوى الانسان على الطاعة وهي الصلاة المقامة فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

- دعوة الانسان الى الاضطلاع بمسؤوليته بأن يدرك أنه قادر على المسؤولية وأن الاختيار ضروري لتكتمل بشريته فقد عاملت حكمة لقمان الانسان من خلال وصايا الأب إلى الإبن على أنه يقدر ويستطيع لا على أنه قاصر وعاجز .

- الحرص على التواضع لأنه صفة النفس التي بلغت درجة الرياضة الفعلية .

### منطق آيات لقمان الداخلي في سياق القرآن

تمثل الحكمة في السياق القرآني نواة تتفرع عنها وحدات دلالية جوهرية . وقد استخرجناها بحسب

وحدات دلالية جوهرية. وقد استخرجناها  
بحسب تواترها في الآيات عبر السور كلها.

الحكمة ( 18 )

المجموع		
8	7	الكتاب والحكمة
	1	الحكمة وفصل الخطاب
7	7	الحكمة
1	1	الملك والحكمة

الحكيم

المجموع		
	47	عزيز حكيم
49	2	علي حكيم
	36	عليم حكيم
40	4	حكيم خبير
	1	تواب حكيم
3	1	حكيم حميد
	1	واسع حكيم

المجموع		
	2	الكتاب الحكيم
5	1	القرآن الحكيم
	1	الذكر الحكيم
	1	أمر حكيم

أما الوحدة الدلالية الأولى فتقرن الحكمة الى الكتاب وتبنى الصلة بينهما على التلازم . فالكتاب هو التنزيل، والحكمة هي الهدى المنبثق عنه . فهي السنة عند كثير من المفسرين وهي التدبير الصائب المتولد عن التعاليم الدينية بصفة أعم . هذا النوع الأوّل من الحكم الالهي . هي الحكمة الناجمة عن الوحي وهي التي ارتضاها الله للانسان بما يسمى العلم اللدني . فالحكمة معرفة دينية عامة وهي علم نوراني خاص . وتنشأ هذه الحكمة حسب تصورات مختلفة .

هي نتيجة للاحسان في العبادة (19) . فكما اجتهد المتعبد في الطاعة نال نصيبا من الحكمة . فهي مكتملة وجاهزة يطلبها الانسان بمقتضى العبادة . وليست العبادة في هذا المعنى طقوسا بل هي نظرة شاملة للحياة وسلوك عام . فالفرائض مطية لدرك الحكمة . لذلك بحث الفقهاء عن الحكمة من الفرائض واستدلوا بها على شمولية العقيدة والشريعة (20) . ليست الحكمة في هذا السياق فعلا بشريا محضا بل هي التقاء السعي الانساني مع العطاء الالهي .

وهي قرينة ما يترتب عن الفيض الإلهي . فالعقول

المنبجسة عن العقل الأوّل تتلقى المعرفة منه وتؤتى الحكمة بمقتضى ذلك (21) . ولهذا الرأي صدى في الفلسفة الأفلاطونية بناء على ظاهرة التذكر وعلى أسطورة الكهف . فالحكمة بما هي خالص المعرفة ، انعكاس لحقائق يقينية مثالية ، يرتكز على الفيض .

فالحكمة الإلهية تتسع الى مجالين . المجال الأوّل هو الشريعة والمجال الثاني هو الفلسفة . لكل منهما آليات ومفاهيم ولكنهما يجتمعان في النهاية عند الحكمة الالهية . لم تكن الحقيقة الالهية عند الفقهاء من جنس ما كان يحمله الفلاسفة الإلهيون ، ولكن المقصد كان واحدا والسبل اليه مفترقة تدرك بفعل التأويل . هذه الحكمة الالهية منزلة .

أما الوحدة الدلالية الثانية فتميّز الحكمة بذاتها ، فتصبح قطبا مستقلاً هي « المعرفة الخالصة عن شوائب الأخطاء ... وهي معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشرية . بحيث لا تلتبس على صاحبها الحقائق المتشابهة بعضها ببعض ولا تخطيء في العلل والأسباب » .

هذا النوع الثاني من الحكمة يتميّز في ماهيته عن النوع الأوّل . لأنها حكمة بشرية لا تنفصل بداهة عن

الصلة الدينية التي تربط الإله بالإنسان ولكنها تدرج في إطار ما يتهيأ للإنسان من قوى هو المسؤول عن تثقيفها وتوجيهها . فله أن يرتقي بها الى الاستبصار المتفاعل مع العقل وما يحفّ به من قوى تخدمه في الانسان كالادراك والوعي والرأي والتبصّر وما يقوله عنه من اجراء منطقي يتضمن الأقيسة والبراهين والمقارنات والاستنباط والاستنتاج ... وعليه أن يرسب بها في مستوى السماجة .

فهي الحكمة البشرية الصادرة عن الجهد الانساني في مستوى المدارك والملكات وفي مستوى التفكير . ويحوم بفلك هذا النمط من الحكمة الحاح القرآن على ظاهرة إعمال العقل ومخاطبته ذوي الألباب .

ان الحكمة البشرية مسؤولية الانسان بها يتأصل في آدميته ، وبالعزوف عن طلبها وصقلها يرتد الى الحيوانية . فهي حكمة متصاعدة .

وقد دعت الأحاديث النبوية بما هي صورة من الحكمة الالهية ، الى هذه الحكمة البشرية . فقد روى عن النبي قوله الحكمة ضالة المؤمن فحذّ ضالتك ولو من أهل الشرك « (22) .

وأشار القرآن الى موازنة لطيفة بين النمطين من

الحكمة الإلهية ، المنزلة والحكمة البشرية المتصاعدة في قوله تعالى : « ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين » .

وفي اسم التفضيل موازنة بين الحكمتين لا تبطل فيها الحكمة البشرية بل تصبح متميزة لأنها تنتهي هي الأخرى الى سبيل قويم .

لقد عالجتا الحكمتين من زاوية اكتمال كل نمط في حد ذاته وأشرنا الى موطن الالتقاء بينهما في استشفاف الحقيقة .

فالحكمة الإلهية دينية محض . والحكمة البشرية دنيوية . ولا يتعارض النمطان أو يتناقضان في السياق القرآني ، لأن مقصد القرآن أن يكون الخطاب عاما شاملا . ولكننا ندرك الإشارة الى التنائي بين النمطين من الحكمة . فالتقاؤهما ليس حتميا وانفصالهما ممكن . ونريد أن نقف عند مجال الانفصال .

ليس الانفصال بالضرورة موقفا عدائيا بين حاملي الحكمتين ، بل هو في سياق فهمنا حيادي .

لا شك أن العقل البشري قد أتيج له من المعارف ومن المقاربات في العصر الحديث ما لا يمكن الاستغناء عنه أو الاغضاء . بل ان العلم الانساني أصبح قوة



فاعلة لم تتبلور دائما في ظل العقيدة الدينية بل لعله لم يزه الا خارجها . السؤال المطروح هنا هو ما هي العلاقة الممكنة بين الحكمة الالهية الدينية والحكمة البشرية الدنياوية . وان لم تكن هذه الحكمة البشرية ساعية لغاية دينية أو مراعية لها ؟

لقد اعتبر ابن رشد أن الشرع يؤول فيما يبدو متعارضاً مع الحكمة (23). وقد يبدو موقفه مستندا الى وهم . ان يلوح الشرع متحولاً والحكمة ثابتة يقينية . ولكن رأيه يقوم على قراءة أخرى تفهم الشرع على أنه منبت التفكر وهو بذلك لا يصمت عن الادلاء بالرأي والموقف والحكم كلما وجدت الحكمة البشرية حاجة الى ذلك وسعت الى الشرع سعياً .

فبقدر ما أضحت الحكمة البشرية اليوم عالماً مكتملاً يوازي العالم الديني ، أصبحت الحاجة إليها أؤكد لأنها في خدمة أغراضها المخصوصة توفر للمتدين منهجاً لقراءة النص الديني ومادة معرفية لاستطلاع المجهول أو الغامض فيه .

أما الوحدة الدلالية الثالثة فقد خرجت من القوة العقلية ومن دائرة الحكمة الالهية المجردة الى حيز الواقع البشري .

ان الحكمة كانت الهية منزلة أو انسانية متصاعدة  
قوة بحوزة الادمي ولكنها تبقى نظرية يعدمها الفعل  
المادي. وقد اتاح لها السياق القرآني هذا الفعل بان  
ربطها بالملك . وليس الملك الخطة السياسية فحسب بل  
هو أعم يمس الحكم فتتضاف الى الحكمة الحنكة وهما  
يجتمعان في الشوكة . فتصبح الحكمة قاعدة الحكم  
وأساس السلطان . وهذا التزاوج يمنح للحكمة أن  
تستحيل واقعا يجرى . وهذه الظاهرة كفيلة بأن تنبئ  
عن مراعاة الواقع الانساني لأن الحكمة النظرية بحاجة  
الى الحكمة العملية وان توفر الأولى يستدعي الثانية .  
وتصبح السياسة من مستلزمات الحكمة ولذلك اعتبرت  
عند فقهاء السياسة شرطا من شروط الإمامة (24) .

يستدرجنا هذا التأليف الى بسط مشكليات لعل  
أخطرها ما هو صدى لعلاقة الشريعة بالفلسفة في  
العصور الوسيطة (25) ، وهي الصلة بين العلوم الملية  
والعلوم الحكمية . ولم نقف على تفسير معاصر يضيف  
الى المادة القديمة الا في معنى التأليف والتبسط. أما  
العلوم الحكمية فقد انفصلت عن مجال الفلسفة وأصبح  
العلم قائم الذات ونفخ في مادته فاضحت العلوم ذات  
بيئة فاعلة في الحياة الانسانية وعليها بنيت في شمولها

وذكر علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الفيزياء وعلم الطب وعلم الانثروبولوجيا ضمن العلوم الأخرى يحض لتفسير جديد يراعي ما قاله المفسرون قديما ويلازم ما يثبته العلم الحديث من حقائق . وليست الدعوة الى ان يتأسس التفسير على العلم خالصا ، بل ان يجمع العلوم بما هي مواد تمس المعرفة الانسانية . وليس هذا النمط من التفسير ممكنا لفرد علامة بل هو جماع عمل الهيئات والمؤسسات .

أما عبارة حكيم فقد تواترت في القرآن بنسق يمكن أن ينتظم حسب محاور رئيسية . يتصل الأول بالعلاقة بين صفة الحكيم ومفهوم العزة احالة على قوة الخالق وعلو شأنه . ويرتبط الثاني بمفهوم العلم أما الثالث فيقترن بظاهرة الرحمة . فتصبح صفة الحكيم نواة للتصرف الالهي . وبهذا الشكل يتدعم ما ذهبنا اليه من أن الحكمة - الالهية أو البشرية متصلتين أو متوازيتين - نواة جوهرية في السياق القرآني .

## الهوامش

- (1) عبد الروهاب بوحديبة «كلام الله وتصوره في التاريخ» - الملتقى الإسلامي المسيحي الثاني : معاني الوحي والتنزيل ومستوياتهما ، سلسلة الدراسات الإسلامية صص 2 - 13 .
- (2) التهانوي : الكشاف مادة «تفسير» .
- (3) المرجع نفسه .
- (4) علي الشنوفي : «الوحي والتأويل عند ابن رشد وسبينوزا» - الملتقى الإسلامي المسيحي الثاني : معاني الوحي والتنزيل ومستوياتهما - سلسلة الدراسات الإسلامية صص 119-138 .
- (5) علي الشنوفي : «الوحي والتأويل عند ابن رشد وسبينوزا» - الملتقى الإسلامي المسيحي الثاني : معاني الوحي والتنزيل ومستوياتهما - سلسلة الدراسات الإسلامية صص 119-138 .
- (6) نذكر بالخصوص بالنسبة الى «العالم الإسلامي» حسن حنفي في كتابه «التراث والثورة» .
- (7) انظر الإحالة رقم 1 أعلاه
- (8) مسكويه : تهذيب الاخلاق ونظهير الأعراق . ص 38 الطبعة الثانية - مكتبة الحياة - بيروت .
- (9) السورة : البقرة ، الآية 44 .
- (10) حديث السفينة .
- (11) الشافعي : الرسالة .
- (12) محمد الطاهر ابن عاشور . التحرير والتنوير ص 321 الجزء 20/21 . تونس 1984 .
- (13) مسكويه : المرجع السابق ص : 47 .
- (14) سورة الماعون الآية 4 .
- (15) سورة البقرة الآية 2 .
- (16) سورة آل عمران الايات : 104 - 110 - 114 .
- (17) محمد اقبال : تجديد التفكير الديني في الإسلام . ص 170 ترجمة عباس محمود . طبعة القاهرة لجنة الترجمة والتأليف والنشر 1955 .
- (18) انطلقنا في الاحصاء من : محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .
- (19) الاشارة الى حديث جبريل . رواه عمر بن الخطاب : مختار الحسن والصحيح من الحديث الشريف البديع صقر . ص 39 . بيروت 91 .
- (20) الغزالي : احياء علوم الدين .
- (21) ابن سينا : الرسائل : كتاب النفس طبعة واندك ص 28 وما بعد .
- (22) حديث نبوي شريف . اثبته المسعودي بمروج الذهب : الجزء 7 ص 164 .

- (23) ابن رشد فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال . ص 35 .
- (24) أبو الحسن الماوردي : الاحكام السلطانية : باب الامامة ص 5 .
- (25) أبو حيان التوحيدي : الامتاع والمؤانسة الجزء 2 . الليلة 17 . (تحقيق أحمد أمين . د . ت .).

## نحو منهج سليم في قضية موثوقية الرسائل العربية الاسلامية المبكرة

### وداد القاضي

جامعة شيكاغو

عندما يجتمع عدد من الباحثين في الدراسات العربية الاسلامية من الشرق والغرب ، في العقد التاسع من القرن العشرين ، لبحث قضية « التراث والمنهج » ، فإنّ واحداً من الموضوعات التي لا بدّ لهم من التعرّض لها مسألة مدى موثوقية النصوص العربية المبكرة التي يُفترض أنها ترجع إلى القرن الأول والنصف الأول من القرن الثاني للهجرة ، إلاّ أن الغالبية العظمى لما وصلنا من صُورها يرجع الى القرن الثالث الهجري أو ما بعده . وليست هذه القضية بجديدة جدّة تامة بين الدارسين المحدثين المتخصصين في الحضارة الاسلامية، خاصة في الغرب ، إذ انّ جذورها ترجع إلى ايام المستشرق المجري (اجناس جولدتسيهر) في أواخر

القرن التاسع عشر ؛ ولكن أمورا جدت في العشرين سنة الماضية جعلت القضية تُطرح بحدة مرة أخرى ، أهمها نشرُ دراسة توصل الشكَّ في موثوقية النصوص المبكرة حتى القرآن نفسه (دراسة وانسبورو المعنونة (Qur'anic studies) والمنشورة سنة 1979) ، وظهور بعض الدراسات التي تسلخ عن النصوص التاريخية العربية المبكرة أي موثوقية ابتداءً ، وتفضّل عليها النصوص «غير الاسلامية» ، كالنصوص اليونانية والسريانية (مثل دراسة كرونه وكوك المعنونة Hagarism) ثم قيام موجات عنيفة من النقد الشديد لجهود مستشرقين كبار أمثال (ريتر ومادلونج وفان إس) في محاولاتهم لردّ بعض النصوص إلى القرن الأول الهجري (مثل كتاب كوك (Early Muslim Dogma) ومقالاته ومقالات (تسيمرمان). فهذه الأمور أعطت أبعاداً جديدة للقضية كما كانت مطروحةً من قبل ، وجعلت البحث فيها يشتدّ في التعقيد والتنوّق والتفصيل، وأوقعت الانقسام في صفّ الباحثين الغربيين أنفسهم ، فبدأ واضحاً أن أيام «الحكم القاطع المقبول» كما في حالتي (جولد تسيهر وشاخت مثلاً) قد وُكِّتْ ، وأنّ الموضوع مفتوح للنقاش الطويل المتعمّق، وأنّ إهماله والوقوف موقف

المتفرِّج - أو الساخر - منه لم يعد جائزا ، لا على أصحاب التراث الاسلامي نفسه ولا على غيرهم .

وأودّ بادئ ذي بدء أن أقرر ما أراه أمورا عامة :  
أرى أنه لا بدّ من التسليم بها حتى يصل المرء إلى نتائج سليمة قدر الإمكان ، وهي :

(1) إن كون المصادر العربية المكتوبة عن الفترة المبكرة قد كُتبت في فترة متأخرة عنها ، فهي غير معاصرة للأحداث التي حدثت فيها ، هي مشكلة حقيقية وليست متوهمة ، والاعتراف بها هو الأساس المنهجي السليم للانطلاق إلى دراسة الفترة المبكرة ، وهي الخطوة الأولى التي لا بدّ من القيام بها في إطار ما سُمِّي منذ زمن طويل بـ « نقد النصوص » .

(2) إن هذا الاعتراف يصعب عمل الباحث ، الا أنه يحميه من الانزلاق في أحكام قد لا يكون لها أساس من الصحة .

(3) إن هذا الموقف يجرّ حقا إلى اعتبار الكثير مما كُتب عن تاريخ الفترة المبكرة « صورة تاريخية » وليس «تاريخاً» لها (على حدّ تعبير تلمان ناجل) ، ولكنه يمنح الباحث - في مقابل ذلك - الفرصة لتتبع تطوّر هذه الصورة عبر الزمن ، على اعتبار أن المجتمع الاسلامي -



كغيره من المجتمعات الانسانية - مجتمع حيّ نام يتطور باطراد ، وهذا التطور هو الذي أعطى الحضارة الناتجة عنه ، اي الحضارة الاسلامية ، الحيوية التي جعلتها قادرة على الاستمرار لفترة طويلة ، ومكّنها من ان تكون فاعلة في تاريخ الحضارات الانسانية .

(4) إن علماء المسلمين أنفسهم قد تشككوا منذ ما يزيد على ألف سنة في صحة بعض النصوص المبكرة، ولولا ذلك ما ظهر علم الجرح والتعديل (في مجال الحديث النبوي) ولا ما سُمّي من بعد بالانتحال (في الشعر الجاهلي) .

(5) إن جهود هؤلاء العلماء ودراسات بعض الباحثين المعاصرين تؤكد أن قدرًا غير قليل من النصوص المنسوبة الى الفترة المبكرة هو من الموضوع لا من الصحيح ، وذلك لدواعي متعددة متفاوتة في المنبع ، منها ظروف الكتابة الماديّة في هذه الفترة ، خاصة لجهة شحّ مواد الكتابة نسبيًا ، وغلبة الأسلوب الشفوي في تناقل الأخبار ، وتأخّر حركة التدوين الكبرى على الفتوح لمدة طويلة ، واتساع رقعة أراضي الخلافة الاسلامية اتساعًا عظيمًا وبسرعة مذهلة ، وتفاوت مناطق هذه الخلافة فيما بينها في التفدك والانتاج

الحضاريين ، ثم ظهور الخلافات الدينية والسياسية بين المسلمين بعد وقت قصير نسبياً من انتشار الاسلام وقيام دولته ، وهذا بدوره أدّى إلى ظهور التعارض بين فئات هذا المجتمع - مذاهب وطوائف وِفَرَقًا - في الأهواء ، وإلى تأخّر التبلور المذهبي العقدي لدى القسم الاعظم من المسلمين - أهل السنّة والجماعة- حتى ما بعد قيام الدولة العباسية في الثلث الثاني من القرن الثاني .

(6) غير أن هذا كله لا يعني أن المسلمين لم يدوّنوا شيئاً قبل ابتداء حركة التدوين الكبرى في منتصف القرن الثاني للهجرة ، وإن كنّا لا نريد أن نصدّق آلاف الإشارات إلى ذلك في المصادر المتأخرة ، فليس علينا إلا أن نلقي نظرة على ما دُرِسَ حتى الآن من أوراق البردي (خاصّة دراسات بيكر وغرومان وأبوت) حتّى تقرّر أنّ الكتابة كانت وسيلة رئيسية من وسائل التعبير الأدبي ، جنباً إلى جنب مع التناقل الشفوي للأخبار ، وأنّ هذه الوسيلة كانت الوسيلة الضرورية الوحيدة لتبليغ الأخبار احياناً ، ولذلك فإن علينا أن نأخذ ذلك بعين الاعتبار ونحن نتصدّى لحلّ مدّى موثوقية النصوص العربية الاسلامية المبكرة .

وأودّ فيما يلي أن آخذ فناً واحداً من فنون الكتابة العربية الأدبية المبكرة : فنّ الرسالة ، وأتابع نماذجها التي حُفظت لنا منه ، وأقترح بشأنه بعض الاقتراحات العامة في مجال التوثيق له (أو عدمه) ، على أن يكون ذلك مثلاً وحسبُ على الطريقة التي أرى انه لا بد أن نستعملها منهجاً في مادة الفترة المبكرة . وما أعنيه بـ «التوثيق» أن يقوم الدارس بتقويم الرسالة التي يعالجها ويحكم ما اذا كانت حقاً - كما وردت بنصّها الحرفي - من تأليف الشخص الذي نَسَبْتُ اليه المصادر المتأخرة تأليفها ، في الفترة ما قبل منتصف القرن الثّاني للهجرة ، وعلى ضوء تقويمه ذلك يثبت موثوقية نسبتها أو يرجّحها أو ينفيه .

\* \* \*

يمكن تعريف الرسالة بانها نصّ يكتبه شخص واحد في الأغلب ، أو جماعة في حالات نادرة ، الى شخص آخر في الأغلب ، او الى جماعة في حالات أقلّ . وقد وصلتنا مئات الرسائل المنسوبة الى فترتي صدر الاسلام والدولة الأمويّة (كما نراه في كتاب أحمد زكي

صفوت جمهرة رسائل العرب ، القسم الثاني من الجزء الأول ، وكامل الجزء الثاني ، ثم كتاب محمد ماهر حمادة الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي ، وفي الكتاب الأخير وحده 955 رسالة)، وهذه الرسائل أوردتها المصادر التاريخية والأدبية التي ترجع إلى القرن الثالث وما بعده . ويمكن قسمة هذه الرسائل في قسمين : (1) الرسائل المتعلقة بالدولة، و (2) الرسائل المتعلقة بالعقيدة .

### 1 - الرسائل المتعلقة بالدولة :

تشكّل هذه الرسائل القسم الأعظم مما وصلنا ، وهذا أمرٌ مفهوم ، إذ إنّ هذا النوع من الرسائل هو الذي يهتمّ المؤرخين حفظه ، لما لنصوصه من علاقة ضرورية بفهم السياق التاريخي للأمة . غير أن هناك جانباً آخر منه لم يُعَنَّ المؤرخون به ، وإنما حَفَظَتْ لنا نماذج منه في أوراق البردي ، ولذلك أرى أنه لا بد من الفصل بين هذين اللونين من الرسائل المتعلقة بالدولة ، ودراسة كل منهما على حدة ، وسوف أُسمّي النوع الثاني منهما : الرسائل الإدارية ، والنوع الأول : الرسائل السياسية .

## (أ) الرسائل الادارية :

هذه الرسائل لا يرقى إلى نصوصها أي شك لأنها وصلتنا مكتوبة على أوراقها الأصلية ، فهي «وثائق» وليست «أخبارا» متناقلة . ويرجع الفضل في نشر عدد لا بأس به منها إلى جهود (كارل هاينرش بيكر) و(أدولف غرومان) و(نايبا أبوت) في الأكثر . ومادة القسم المبكر في هذه الرسائل تعنى بمختلف شؤون الدولة ، والمسائل الماليّة منها بشكل خاص ، كالضرائب والأرزاق . وبطبيعة الحال فإن قسما كبيرا من هذه البرديات لا يهمننا في هذا البحث بخاصة ، لأنه ليس مكتوبا بشكل رسائل (ايصالات - غرومان 2 : 160 ؛ لوائح - غرومان 2 : 201) ، ولكن الرسائل منها هامة جدا لمن يريد ان يدرس موثوقية الرسائل المبكرة ، إذ أنها تصف في أمرين هامين . الأول هو دلالتها - مع غيرها من «الوثائق» - على ما يمكن أن يقال بشكل قاطع عن «الدولة» الاسلامية ، من حيث هي نظام سياسي معقد متكامل . وقد درس هذه المسألة (فريد دونر) في بحث له نشر سنة 1986 في مجلة (Journal of the American Oriental Society) (الصفحات 282-296)، وفيه بدأ بتحديد مفهوم «الدولة» فقال إن الدولة بناء سياسي

ينطوي على مجموعة من المؤسسات السياسية ويرتكز على تصوّر للسلطة التشريعية مبنيّ على فكرة العدل . فالدولة على ذلك - بواسطة مؤسساتها وأيديولوجيتها التشريعية - تنظّم علاقات القوى المختلفة في المجتمع ، وتضعها في إطار كبير ، وتجعل لسلطتها هي المكانة العليا بين سائر القوى في المجتمع. ومؤسسات الدولة التي تمكّنها من بسط سلطة القانون وحفظ النظام السياسي سالما هي : المجموعة الحاكمة ، والجيش والشرطة ، والسلك القضائي ، وإدارة الضرائب ، وبعض المؤسسات الاضافية . وقد درس (دون ما نشر) من هذه المادّة «الوثائقية» (أوراق البردي ، والنقوش ، والنقود ، والأوزان) عن الفترة المبكرة ، وتوصل الى نتائج قاطعة تدلّ على ان «الدولة» الاسلامية كانت واضحة المعالم منذ خلافة عبد الملك ابن مروان 65 - 86 وأنه كان هناك «دولة» على الأرجح منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان (41 - 60). اما فيما يتعلق بالفترة السابقة على خلافة معاوية فان المادّة المتوفرة من الوثائق ضئيلة ولا تسمح بالاستنتاج الواضح ، وإن كانت هناك بعض الدلائل على أن «الدولة» الاسلامية كانت سابقة على خلافة معاوية .

والأمر الثاني الذي تسعفنا فيه هذه الوثائق الرسائل انها تمكّنا من دراسة شكل الرسالة ومصطلحه كما كان معروفا على وجه التأكيد أيام «الدولة» الاسلامية المبكرة هذه ، وذلك موضوع لم يبحث بدقّة بعد فيما أعلم . ولا شك أن دراسة من هذا النوع تصطدم بعقبات جمّة ، أهمها قلة عدد هذه الرسائل ، وانطماس اجزاء منها بفعل الزمن ، وكون أقدمها لا يرجع الى ما قبل سنة 90 ، وهي السنة التي كان فيها قرّة بن شريك واليا على مصر في خلافة الوليد ابن عبد الملك . ثم إن القسم الاكبر على الاطلاق مما وصلنا منها يرجع الى مصر وحدها ، من دون سائر الولايات الاسلامية ، وان القسم الاعظم منها يعنى بالأمور المالية ، وذلك موضوع محدود بطبيعته ، ألفاظا وتعابير وإنشاء وخطابا . ورغم ذلك فإن العمل في دراسة هذه الرسائل المبكرة مطلوب بشدة اليوم ، وقد يعطي نتائج اكثر مما يتوقعه المرء ، وأودّ هنا أن أعطي نموذجا على ذلك .

يشير (مايكل كوك) في كتابه (Early Muslim Dogma) إلى أن مجموعة من الرسائل التي يفترض انها مبكرة تفتتح بعد البسملة و«أما بعد» بصيغة الحض على

«تقوى الله» (أوصيك ، نوصيك بتقوى الله) (الصفحة 6) ، وهذه الرسائل ترجع في نظره الى أواخر الفترة الأموية لا إلى القرن الأول الهجري (في صفحات متفرقة) ، إذ أنه يلاحظ أن مثل هذا التعبير لا يرد فيما وصلنا من برديات المتحف المصري ولا في الرسائل المعاصرة المنقولة في المصادر (الصفحة 7 ، الملاحظة رقم 15) . وملاحظة (كوك) صحيحة فيما اطلعت عليه من برديات إضافية ، إلا انه يلاحظ ان في إحداها مما لم يطلع عليه (كوك) (1) يرد تعبير «واتق الله فيما تلي» ، (وهي ترجع الى سنة 91 ، أي انها من القرن الاول الهجري ) ، وإن كان هذا التعبير يجيء في وسط الرسالة لا في أولها (2) ، دون أن يكون مسبقا بأحد اشكال الفعل «أوصى» وبصيغة الفعل (اتق) لا بصيغة الاسم (تقوى) .

ان هذه الملاحظة قد تكون جزئية وغير حاسمة في النتائج اوليا ، ولكني لا أشكّ في أن متابعة الدراسة المتأنية في مثل هذه الأمور من شأنه ان يلقي أضواء جديدة على ما نعرف على وجه اليقين عن الرسائل المبكرة ، وان يلزمنا باعادة تقويم الأحكام المعممة التي



قد تكون جائزة بحق التراث العربي الاسلامي المبكر .  
وفي هذا الصدد أودّ ان أنبّه الى قضية أخرى تفيدنا  
فيها الرسائل - الوثائق ، وهي مسألة ما قد تكشف  
عنه من تخلّل أثر التعبير القرآني فيها (ولفظ «التقوى»  
وسائر صيغ الفعل «اتقى» كثيرة في القرآن) ، وهذا  
بدوره يوضح مكان القرآن في ذلك المجتمع الاسلامي  
المبكر ، ويدحض الشكوك الغربية المثارة حول تاريخ  
تشكله النهائي ، كما اراد (وانسبورو) . ولعل ممّا  
يجب أن يوجه اليه الاهتمام في مجال الدراسات  
القرآنية ، الأوراق المكتشفة حديثا في الجامع الكبير  
بصنعاء من مصحف لا شك في انه يرجع إلى العصر  
الأموي .

يبقى أن المشكلة الكبرى بالنسبة لدراسة البرديات  
تشكّلت اماكن وجودها (وأنا أعرف ان هناك مجموعات  
منها في جامعات شيكاغو وييل وكولومبيا وميشيغان  
من الولايات المتحدة الامريكية وحدها) ، وصعوبة  
قراءتها ، ثم إن قسما غير قليل منها قد لا يؤدي الى  
كشوفات كبيرة حتى لو نشر (بعد جهود جمّة) ، وان  
الرسائل بالذات قد لا تشكّل نسبة كبيرة منها - على أن  
هذا امر لا يمكن الجزم به حتى يتمّ العمل نفسه ،

وهذا قد يستغرق عقوداً . دليلة من السنين ، وهو وقت ثمين لا يمكن أن يتوقف فيه البحث في التراث بانتظار نتائج البرديات القاطعة ، الا أنه على الأقلّ يجب أن يجعلنا أقلّ تغطرسا في القطع بما نصل اليه من نتائج ، واكثر حثاً على التحفّظ العلمي ، وهذا كله مما يخدم المنهج العلمي السليم في نهاية المطاف .

### (ب) الرسائل السياسية

تشكل هذه الرسائل الاكثرية السّاحقة مما وصلنا من رسائل الفترة المبكرة إذ فيها نجد رسائل معاوية وعلي وعبد الملك والحجاج ... الخ . وهذه الرسائل هي أعسر الرسائل على التوثيق ، وخاصة في الحالات التي يكون هناك فيها تباين بين رواياتها وعندما تكون واضحة الهوى ، شيعيا كان ذلك (نهج البلاغة) أو أمويا (الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة) أو غير ذلك (كتاب الفتوح لابن أعثم) . ورغم ذلك فان عملية التوثيق ليست مستحيلة منهاجا ، وفي ذلك يمكن استعمال أدوات مختلفة ، أتطرق هنا الى بعضها .

وأول أداة لذلك هي وضع الرسالة موضع البحث في موضعها من جهاز الدولة . وقد مرّ الحديث على

«الدولة» الاسلامية وما تقطع به الوثائق المختلفة بشأنها (مقالة دونر) ، ونتائجها تؤدي الى أن تعتبر الرسائل المروية عن الفترة التالية لخلافة معاوية - سنة 41 وما بعدها - اوثق من الرسائل السابقة عليها من حيث المبدأ ، والرسائل التالية لخلافة عبد الملك بن مروان (خاصة بعد انتهاء فتنة ابن الزبير سنة 72) رسائل أرجح في التوثيق من سابقتها ، وهذا أمر يتفق وما نعرفه عن الدولة الاسلامية من المصادر التاريخية والادبية ، من أن ديوان الرسائل أحدث زمن معاوية بن أبي سفيان ، وأن عبد الملك بن مروان قام باصلاحات إدارية واسعة النطاق بعيدة النتائج إثر استقلاله بالخلافة سنة 72 ، وبذلك فإن الرسائل السابقة على خلافة معاوية يكاد يكون من المستحيل القطع بموثوقيتها من منظور الدولة هذا .

على أن هذا التعميم لا يكفي ، ويجب ان يتم البحث في العمق في طبيعة الدولة الاسلامية المبكرة . وفي هذا المجال يجب ان يسأل سؤال رئيسي : من أين جاء المؤرخون والادباء بالرسائل التي دونوا نصوصها ؟ إن هذا السؤال يقودنا الى البحث في أمرين : طبيعة عمل ديوان الرسائل ، ثم دور الأخباريين والكتّاب بصفتهم

حلقة وصل بين الرسائل الأصلية والنص التاريخي او الأدبي لها في كتب المؤرخين والادباء .

(أ) اما طبيعة العمل في ديوان الرسائل فلا نعرف عنه الكثير ، سوى انه بدأ في خلافة معاوية ، ومعه أحدث ديوان (الخاتم) لختم الرسائل الرسمية بعد أقرارها من جانب الخليفة . وقد حفظت لنا المصادر اسماء كتّاب ديوان الرسائل منذ عهد معاوية : سرحون وابنه ومن بعدهم ، ويبدو مؤكدا مما حفظ من برديات مصر أن عمال الخليفة في الامصار كان عندهم شكل من أشكال ديوان الرسائل في عواصم ولاياتهم ، لأن بعضها يجيء في آخره «وكتب فلان» (مثلا : «وكتب راشد» في آخر رسائل قرّة ابن شريك)، بحيث أن نصوص هذه البرديات يمكن ان تشكل مصدرا لتحديد هؤلاء الكتّاب في بعض السنوات على الأقل . ويظهر من هذه البرديات أيضا ان اللغة الرئيسية المستعملة فيها هي العربية ، ولكن بعضها يجيء فيه ألفاظ او تعبيرات او اقسام باليونانية (غرومان 2 : 48-51) ، وهذا يعني ان اللغات المحلية السابقة على الفتح الاسلامي (بما في ذلك الفارسية ، وإن كان ليس لدينا نماذج منها ) ظلت مستعملة جزئيا في ديوان الرسائل ،

خارج مركز الخلافة في الشام على الأقل . على أن اصلاحات عبد الملك بعد سنة 72 - وتعريب الدواوين منها بشكل خاص - غيرت ذلك الى حد بعيد ، وإن كان ديوان الرسائل أقل تأثرا من بعض الدواوين الأخرى (كديوان الخراج مثلا) بتلك الاصلاحات . ولا تهتم المصادر بذكر اية تفصيلات عن وضع الديوان بعد حركة التعريب ، إلا ان بعض الاخبار المتفرقة فيها تمكننا من تصور التطور الذي حدث فيه منذ السنوات الأخيرة من خلافة عبد الملك - أي قبيل سنة 86 . وقد قمت في بحث لم ينشر بعد بربط هذه الاخبار وتفسيرها ، وقد بدا لي منها ان الديوان - في العاصمة على الأقل - سرعان ما أصبح شيئا يشبه «المؤسسة التعليمية» يدخله المتعلم الراغب في ان يصبح كاتباً ، ويتدرّب فيه باشراف كتّاب متقدمين على كتابة الرسائل بأشكالها المختلفة طبقاً لما يشبه البرنامج التعليمي ، ويجتاز ما يشبه «الامتحانات» التي تؤهله لأن يصبح كاتباً فيه . وبعد «التخرج» يصبح الكاتب واحداً من كتّاب كُثْر موضوعين بتصرف صاحب الديوان ، فتوكل اليهم «صياغة» الرسائل المراد إنفاذها عن الحضرة ، بحسب التعليمات التي يتلقونها من رئيسهم . فاذا

تميز الواحد منهم تميزا خاصا كتب عن الخليفة مباشرة ، وأعلى رتبة يمكن ان ينالها ان يصير صاحب الديوان كله .

إنّ هذا التصور لمدى التعقيد الذي أصاب ديوان الرسائل يتصل بموضوعنا اتصالا مباشرا من حيث أنه يشير إلى حالة الرسائل السياسية الرسمية في القسم الثاني في الفترة الأموية ، وهو تصوّر يدلّ على أن الرسائل الرسمية كانت تمرّ بغير خطوة قبل أن تصل الى صورتها النهائية ، وهذا بدوره يعني انه من المرجح انه كان هناك في الديوان نسخة واحدة على الأقل من الرسالة المرسلة إلى الخارج ، هي المسوّدة الأخيرة لها ، وإن كُنّا لا نملك الشواهد اليقينية على ان ذلك كان «روتينا» متبعا باطراد في الفترة الأموية . على أن هناك شاهدا على امر آخر ، وهو أن الرسائل الواردة إلى الديوان بالعاصمة من الخارج كانت تحفظ فيه حتى بعد أن يتوفى الخليفة المخاطب بها ، وهذا الشاهد نجده في رواية كتاب سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (3) (المتوفى سنة 268) ، وهي تقول إن الوليد بن عبد الملك كتب الى زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب يسأله أن يبائع لعبد العزيز ابن الوليد ويخلع سليمان

ابن عبد الملك . ففرق زيد عن الوليد فأجابته ، قال ابن عبد الحكم : « فلما استخلف سليمان وجد كتاب زيد الى الوليد بذلك » ولا يهمننا سائر الرواية ، ولكن هذا القسم الاول منها يدل على وجود نوع من «الأرشيف» لحفظ الرسائل الواردة منذ حدود سنة 90 على الأقل ، وهذا امر يشير الى أن التعقيد والتنظيم أخذوا يزدادان باطراد بعد اصلاحات عبد الملك ؛ ولئن كانت الرسائل الواردة تحفظ ، فان نسخ الرسائل الخارجة كانت على الترجيح هي أيضا تحفظ.

كيف يفيدنا ذلك في موضوعنا ؟ إنه يقوي الاحتمال بوجود النسخ الاصلية اذ الصور منها - الصادرة والواردة ، في العاصمة وفي الاطراف - بشكل مكتوب (وليس بشكل شفوي) في دواوين الدولة بعد كتابتها بوقت قصير منذ القسم الثاني من الفترة الأموية على الأقل ، وهذا يعني أن الوصول اليها (أو الى بعضها) بنصوصها ، لم يكن امرا مستحيلا ، خاصة اذا تذكرنا ضخامة «مؤسسة» الديوان وكثيرة العاملين فيها ، ثم اذا تذكرنا ان الكتابة منذ ما قبل تلك الفترة كانت قد أصبحت مهنة يشتغل فيها أفراد أجيال متتالية في الاسرة نفسها (ال سرجون منذ زمن معاوية،

وآل عبد الحميد بن يحيى منذ زمن هشام )، وهذا موضوع سوف أعود إليه من بعد .

غير أن القول بانفتاح المجال أمام الوصول الى الرسائل الرسمية الأموية المتأخرة شأن يختلف عن القول بان حوادث الايام قد أبقت عليها سائلة سليمة خاصة وأن سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية حدثا بعد خراب ودمار كبيرين ، وأن موقف الدولة العباسية من سالفاتها كان مشحونا بأشكال الانتقام والرغبة في طمس المعالم ، غير أن هذا امر يستحيل تقويمه تقويما كاملا ، وإن كان يمكن التقدير بان الثورة العباسية قد تمكنت من اتلاف جانب كبير من هذه الرسائل ، وجعلته في حكم المفقود الى الأبد ، خاصة فيما يتعلق بالوارد منه الى الديوان المركزي بدمشق (وحران ، مركز مروان بن محمد) ، لكنّها لا يمكن أن تكون قد أتلفته كله ، خاصة بالنسبة للرسائل المتوفرة في الأطراف ، بل إن هذا أمر مؤكد حتما ، وإلاّ لما كنّا وجدنا فيها اليوم - بعد اكثر من ألف سنة - برديات مصر وغيرها . وهذا كله يعني أن جانبا من الرسائل الرسمية الأموية المتأخرة قد بقي الوصول اليها ممكنا بعد سقوط الدولة الأموية . ويجب أن لا



ننسى بالإضافة الى ذلك أن عددا غير قليل من رسائل الدولة الرسمية كان يقرأ على المنابر (فيما يمكن ان يسمّى اليوم ب «المنشورات السياسية» ) ، كالإعلامات بالفتوح ، وبالْحجّ ، وبتولية ولاية العهد ، ولذلك فشهوده كثر في ناحية ، ونسخه كثيرة أيضا ، منها واحدة في كل مركز من مراكز الولايات على الأقلّ .

ولكن مرة أخرى لا بد من القبول بأن انفتاح المجال أيام الوصول الى هذه الرسائل شأن يختلف عن القول بان نصوصها التي وردت في المصادر المتأخرة تأخرا بالغا في الزمن عنها هي نفسها نصوصها التي جاءت عليها حين كتابتها . وهذا يوصلنا الى الحديث عن الشق التالي من هذا الموضوع . وهو دور الاخباريين والكتاب بصفتهم حلقة وصل بين الرسائل الأصلية وروايات المؤرخين والأدباء لها .

### (ب) دور الأخباريين : إن أبرز ملمح في أهم كتب

التاريخ التي وصلتنا من القرن الثالث ، أعني بذلك تاريخ الطبري وأنساب الأشراف للبلاذري ، إن رواياتها عن الفترة الأموية موضع البحث جاءت مسندة . ونحن نعلم من علم الحديث ان الإسناد لا يشكل بالضرورة ضمانة ضدّ الوضع أو التحريف ،

والشيء نفسه ينطبق على التاريخ ورغم أن العلمين يشتركان في ان الكتب المعتمدة المتأخرة منهما (البخاري ومسلم / البلاذري والطبري) مؤسسة على كتب أسبق منها تأليفا في الحقل نفسه ، فإن وضعيهما ليس متماثلا . ففي حين ان الرواية الشفوية ظلت تقوم بدور رئيسي في مجال النقل في علم الحديث ، نجد أنفسنا في مجال التاريخ اكثر تطلعا الى الكتب المدونة في فترة أبكر ، وفي زمن الرسول لم يكن هناك جهاز منظم معقد للدولة ، على عكس الحال في الفترة الأموية ، وخاصة المتأخرة منها هذا فضلا عن ان الحديث النبوي - لمكانة الرسول العليا في الضمير الاسلامي - عرضة للوضع اكثر من التاريخ ، وفي حين أن الزمن الذي يتطلع المحدث إلى اثباته زمنا لظهور الحديث المعين يرجع الى فترة الرسول (حتى ما قبل الهجرة) ، نجد أنفسنا في مجال التاريخ الممكن التحقق منه متطلعين الى إثبات نص الرسالة المعينة إلى ما لا يسبق خلافة معاوية ، الى اربعينات القرن الاول ، بل الى ما لا يسبق - بتحقق اكبر - أواسط خلافة عبد الملك ، أي في سبعينات هذا القرن نفسه . ودعني أوضح الأمور اكثر فأقول : اذا كان لدينا مجموعة من الأحاديث ترجع الى

أواسط القرن الثاني ، فإن المسافة الزمنية بينها وبين صاحب القول المنسوبة اليه - الرسول - مسافة قرن ونصف ، أما إذا كان لدينا كتاب تاريخ يرجع الى أواسط القرن الثاني فإن المسافة بينه وبين الأحداث التي يؤرخ لها - والرسائل التي يوردها من ضمن ذلك - لا تزيد على نصف قرن أو أكثر قليلا ، بل انه قد يؤرخ لاحداث عاصر اكثرها .

هذه الكتب الأسبق تأليفا على كتب المؤرخين المعتمدين لم يصلنا منها شيء يستحق الذكر والتحليل، وأصحابها هم الأخباريون الذين أشرت اليهم في رأس هذه الفقرة . على اننا نعرف عن هذه الكتب شيئا هاما وهو عناوينها ، التي حفظها لنا ابن النديم في فهرسته ، فقام بذلك بخدمة لا مثيل لها لتراثنا التاريخي المبكر . فمن هؤلاء الأخباريين محمد بن السائب الكلبي (المتوفى سنة 146) وعوانة ابن الحكم (المتوفى سنة 147) وأبو مخنف الكوفي (المتوفى سنة 157) وسيف بن عمر (المتوفى سنة 180) والواقدي والهيثم بن عدي (وكلاهما متوفى سنة 207) ونصر بن مزاحم (المتوفى سنة 212) ثم قمة الأخباريين أبو الحسن المدائني (المتوفى سنة 225) ، وهو بدور ينقل عن الأخباريين السابقين . فهؤلاء

كانوا مصدرا اساسيا للمؤرخين المتأخرين ، ومن ثمّ فهم يشكّلون حلقة الوصل بين الرسائل الأصلية وبين صورة تلك الرسائل كما أوردها المؤرخون هؤلاء في تواريخهم - أي كما وصلتنا .

هؤلاء الإخباريون ، وخاصة الأولون منهم ، لم يكن مستحيلا عليهم الوصول الى نصوص بعض الرسائل السياسية الأموية المتأخرة . ولكن المشكلة اننا لا نعلم ما اذا كانوا حقا نقلوها عن أصولها . والحقيقة أن عناوين كتب هؤلاء الإخباريين التي أوردها ابن النديم ليس فيها ما يدل على انهم عنوا بالرسائل الرسمية بشكل خاص . ولكننا نعلم - من جهة مقابلة- أن عنوان كتاب ما يدلّ حصرا على كل ما فيه ، وكتاب المدائني المعنون كتاب «التعازي» (الفهرست 116) فيه نصّ غير رسالة رسمية من العصر الأموي ، فكيف بالكتب الأخرى عن مختلف الخلفاء والعمال والقبائل والأحداث ، بل كيف بكتاب مثل كتاب «أشرف الكتاب» للهيثم بن عدي (الفهرست 116) ؟ إنه من الصحيح أن القطع في هذه المسألة ليس ممكنا بعد ، ولكن هذا ليس لاستحالة ذلك استحالة تامة ، ولكن لأن الدارسين لم يعنوا بدراسة هذا الموضوع دراسة متأنية تفصيلية ،

وحيث أن مادة اكبر من مواد الأخباريين قد أصبحت متوفرة لدينا ، فإن امكانات هذه الدراسة قد أصبحت أوفر ، ونصيبتها من النجاح في إيجاد الأجوبة على الأسئلة عن علاقة النصوص المتأخرة بالنصوص الأصلية تزداد مع ازدياد الكشوف في المخطوطات العربية .

(ج) دور الكتاب : يترجم ابن النديم في فقرته عن الكتاب المبكرين في العصر الأموي (الفهرست 121) لعدد من هؤلاء الكتاب (عبد الحميد بن يحيى ، غيلان أبو مروان ، سالم عبد الوهاب بن علي ، خالد بن ربيعة الأفريقي ، يحيى ومحمد ابنا زياد الحارثيان ) ، ويذكر في كل ترجمة عدد أوراق رسائل كل منهم المجموعة (عبد الحميد ألف ورقة ، غيلان ألفا ورقة ، سالم مائة ورقة ، خالد مائتا ورقة ، ويقول عن عبد الوهاب بن علي أن رسائله قليلة ، وعن ابني زياد الحارثيين ان لهما رسائل مجموعة ) . وما تعنيه أقوال ابن النديم أن هذه الرسائل كانت موجودة قبل تأليفه كتابه في أواخر القرن الرابع الهجري . إلا أننا نعلم انها كانت لا بد موجودة قبل ذلك بقرن على الأقل ، عندما صنّف

أحمد بن أبي طاهر طيفور (المتوفى سنة 280) كتابه الضخم الذي لم يصلنا أكثره «المنظوم والمنثور» بل ان بعضا منها كان معروفا زمن الجاحظ (المتوفى سنة 255) في النصف الاول من القرن الثالث وربما في أواخر القرن الثاني أيضا . فمن اين جاءت هذه الرسائل ، ومن جمعها ، ولماذا جمعت أصلا ؟

الأمر المؤكد ان هذه الرسائل ، أو بعضها على الأقل ، قد اهتم بها ليس المؤرخون وحسب وإنما الأدباء أيضا ، باعتبارها - على الأقل منذ خلافة هشام (105 - 125) وكتابه سالم أبي العلاء - تشكل نماذج أدبية يُحرص على تناقلها والإفادة منها ، ومن هؤلاء جماعة يمكن تخصيصهم بالذكر ، وهم الكتاب ، تلك الفئة من موظفي الدولة الذي كان كيانهم قد بدأ بالتحرر «طبقة» مستقلة منذ ما قبل سقوط الدولة الأموية ، بدلالة رسالة عبد الحميد إلى الكتاب المشهورة. هؤلاء الكتاب كان قد بدأ عندهم الشعور بما لهم من دور مميز في الدولة منذ أواخر الدولة الأموية ، وهذا الشعور استمر لديهم بل اشتد بعد قيام الدولة العباسية ، حيث أصبحوا الجماعة التي يُنتقى منها صاحب المنصب الاداري الأول في الدولة ، وصاحب

المنصب السّياسي الثاني فيها (بعد الخليفة ) : الوزير (والبرامكة دليل واضح على ذلك ) ، بل ان واقع الحال من أن عددا منهم كتب للأمويين ثم للعباسيين (مثل خالد البرمكي وابن المقفع) قوَى لديهم الاحساس بأنهم أقوى من ان يهزم أعتى الأحداث السياسية : سقوط دولة وقيام دولة أخرى ، وان الدّول تحتاج اليهم مهما يكن هناك من اختلافات فيما بينها في التوجّهات السياسية أو العقيدية ، وهذا بالضبط هو المقصود مما روي عن عبد الحميد الكاتب في أقدم كتاب عن الكتاب وصلنا (كتاب الكتاب لعبد العزيز بن عبد الله البغدادي) من انه قال ، وقد جيء به ليُقْتَل أمام أعوان العباسيين ، ويحكم ، وإنّا خدمة كل دولة ! ولئن كان هذا يمثل الإطار الفكري «البيروقراطي» للكتاب ، فإن الواقع العملي كان يؤيده بقوة ، وهو أن الكتابة من حيث انها «صنعة» او «صناعة» كما يسمّيها الكتاب انفسهم ، ابتداء بعبد الحميد قد بدأت منذ عهد معاوية مهنة «عائلية» أو «أسرية» ، بمعنى أنها صارت حرفة يشتغل فيها الرجل فابنه (أو أبناءه) وحفيده (أو حَفَدَتَه) ، وهذه ظاهرة نمت مع الزمن ، وأوضح مثل عليها اسرة عبد الحميد الكاتب ، فان ثمانية من أولاده

كانوا بالديوان بدمشق ، وبعضهم صاروا كُتَّاباً أيام العباسيين الأوائل ، واثنان من أولاد حَفَدَتِه صاروا كاتبين بمصر زمن أحمد بن طولون في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري .

وقد وُلِدَ كل هذا لدى الكُتَّابِ اعترازاً ، بالذات ، ورغبة أكبر في إبراز «هويتهم» المميزة والبرهنة عليها، ولذلك فأنني لا أستبعد بل أرجح أن يكون قد قام من بينهم من جمعوا رسائل سالم وخالد بن ربيعة الأفريقي وعبد الحميد بن يحيى (وأترك غيلان جانباً لما يتعلق به من إشكالات عقيدية) في تلك المجموعات التي تحدث عنها ابن النديم ، ومن ثمّ نقل عن هذه المجموعات الجاحظ وابن أبي طاهر ومن تلاهم من الأدباء كابن حمدون ، والقلقشندي وغيرهما .

فان صحّ ذلك - وهو في رأيي صحيح - فان عملية جمع هذه الرسائل يجب أن تكون قد بدأت في النصف الثاني من القرن الثاني ، أي بعد حوالي قرن من إصلاحات عبد الملك ونصف قرن أو أقل من سقوط الدولة الأموية ، وهذا يجعل المسافة الزمنية بين النصوص الاصلية وبين جمعها قصيراً نسبياً ، أو على الأقلّ أقصر مما كان يتصوّر من قبل .



على أن مزيداً من العمل لازال مطلوباً من الباحثين، وخاصة الشبان منهم ، من أجل الانطلاق في العمل بنظرة جديدة غير متأثرة بتسليمات التسليميين المبسطة وتشكيكات المشككين الهدامة ، وتلك الاخيرة لا تخدم العلم ، ولا تتجاوز الافصاح عن الإعجاب بالذات . ولاشك أن من أول مهمات الدارسين الشبان هؤلاء ، أن يقوموا بالتفتيش عن الروايات المختلفة للرسائل المعينة في المظان الادبية والتاريخية ، ثم بالمقارنة بين نصوصها ، ثم - وهذا أهم أمر فيما أرى- ان يقوموا بدراسة ألفاظها لفظاً لفظاً ، وتعبيراتها تعبيراً تعبيراً ، وتركيباتها تركيباً تركيباً ، فضلاً عن دراسة شكلها ، للوصول الى نوع من التصور الواضح للاطار اللغوي والادبي الذي كان يتحرك فيه كتابها . وانه لصحيح انه يجب ان يترك بعض المجال لاعتبار تفرد الكاتب الواحد (واختلافه من ثم عن غيره من الكتاب المعاصرين له)، غير أنه لا بد أن يكون هناك أيضاً مجال مشترك واسع بين المتعاصرين في الدلالات المعينة للالفاظ ، وتلك هي سنة معروفة في كل عصر وكل لغة وكل حضارة . وان المقارنة في الدلالات اللفظية بين الرسائل المدونة والرسائل الاصلية

المحفوظة في البرديات من شأنها ان ترفع النتائج العلمية الى مستوى أعلى من التوثيق.

## ١١ - الرسائل العقيدية

هذا موضوع قد طال فيه الجدل مؤخرا وبخاصة فيما يتعلق بالرسائل المنسوبة الى الحسن البصري والحسن ابن محمد بن الحنفية وعمر بن عبد العزيز في موضوعي الإرجاء والقدر وفي مصادر ترجع الى القرن الثالث الهجري وما بعده ، وهي رسائل يرى هلموت ريتير وفلفرد مادلونج (ويوسف فان إس) انها ترجع الى القرن الاول الهجري فيما يرى مايكل كوك انها لايمكن ان تكون مبكرة بهذا القدر ، وانها لا بد أن ترجع الى الربع الثاني من القرن الثاني - أو إلى ما بعد ذلك - وقد قام هؤلاء الباحثون من الفريقين بتفتيت النصوص ودراسة ألفاظها ووضعها في مكانها من الظروف التاريخية المحيطة بها ، ومع ذلك خرجوا بنتائج مختلفة . فلننظر الى هذه الرسائل من وجهة نظر عملية ، كما فعلنا مع الرسائل الرسمية .

هذه الرسائل كتبها أفراد يؤيدون أو يعارضون فرقة من الفرق الدينية السياسية ، مثلا الفرق التي لم

تنشأ الابدع مقلل عثمان والصراع الناتج عن ذلك بين علي ومعاوية ، فهي في ابكر صورها لا يمكن ان ترجع لما قبل الدولة الأموية . ولكننا نعلم أن أي فرقة قد تنشأ على اساس بشيط (مثل شعار لا حكم الاالله عند الخوارج) ، ولكنها لا تتحول الى فرقة ذات معالم واضحة في الفكر الديني الا بعد جيل على الأقل . ولذلك فإن المرء يمكن ان تجزم باطمئنان كاف أن عقائد الفرق الاسلامية المبكرة (والرسائل المؤلفة دعما أو معارضة لها ) لا يمكن ان ترجع الى ما قبل خلافة عبد الملك بن مروان (65 - 86) . وهذا أمر يؤكد اهتمام عبد الملك - خليفة و «عالم» - بالعقائد المنتشرة في المجتمع وتطلبه للتعرف عليها ، كما بين ذلك مختلف الدارسين و من بينهم إحسان عباس في بحثه عن جهود عبد الملك العلمية . وانه لمن الملاحظ ان هذه الفترة هي الفترة نفسها التي اعتبرناها التاريخ المبدئي للرسائل السياسية التي يمكن التأكيد من موثوقيتها أكثر من غيرها .

على أن الرسائل العقيدية تختلف عن الرسائل السياسية الرسمية في غير وجه فهي اما أن يكتبها شخص من «فرقة» ما استجابة لطلب من شخص او

جماعة من خارج فرقته (مثل رسالة الحسن البصري)،  
أو أن يكتبها شخص لشخص أو جماعة من «فرقته»  
نفسها (مثل رسالة الحسن بن محمد بن الحنفية) .  
وعلى اية حال فان هذه الرسائل تنتشر في الأوساط  
التي تمثل وجهة نظرها - تأييدا أو معارضة - ، وهذا  
يعني انه كان يطلع عليها قدر كبير من الناس، وانها  
تشيع في اوساط كبيرة (وتبين الدراسات الحديثة ان  
القدرية مثلا كانوا يشكلون قطاعا غير صغير في  
المجتمع الاسلامي في الشام والعراق ، حتى انهم  
استطاعوا ان يكونوا العصب المحرك للانقلاب السياسي  
الذي قام به يزيد بن الوليد بن عبد الملك على ابن عمه  
الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وكذلك الحال بالنسبة  
للمرجئة في خراسان والعراق والحجاز) . ومن  
المتصور أن هذه الجماعات كانت تحفظ هذه الرسائل ،  
ثم ينقلها عن الجيل التالي ، فالتالي ، وهكذا . غير ان  
هذا وإن كان يؤكد حفظ الرسائل العقيدية عبر الزمن  
حتى القرن الثالث الهجري ، فانه - من ناحية أخرى -  
يضعنا أمام مشكلة توثيق متن النص نفسه . فهل  
الصورة التي جاءت عليها الرسائل العقيدية في القرن  
الثالث هي نفسها الصورة التي بها كتبت أول ما كتبت

في القرن الاول وأوائل القرن الثاني ؟ إن عقائد هذه الفرق كما نعلم قد تطورت تدريجيا مع تطور الحياة الثقافية العامة في المجتمع الاسلامي ، وكلها قد أصابها تحوّل كبير ، والشريعة خير نموذج على ذلك ، بل القدرية أنفسهم بما صاروا إليه في اطار الاعتزال . إن طبيعة «الفكر الفرقي» اذا صحّ التعبير ، طبيعة تتطلب «الحماية الذاتية» باستمرار حتى تستطيع الفرقة المعينة ان تقف موقف القويّ أمام الخصوم من الفرق الأخرى في حالات الجدل ، وهذا الاتجاه يجعل افراد الفرقة الواحدة - أي فرقة - ينسبون عقائدهم في زمن معين الى رجال كبار القدر من جماعتهم ، وإلى «مؤسسيهم» بشكل خاص ، اي الى زمن سابق على زمنهم بكثير في بعض الأحيان ، وهذا يعني انهم قد «يحرّفون» الرسائل الاولى ، أو يزيّدون عليها ما جدّ من عقائد متطورة في زمانهم ، وبذلك تصير صورة «الأصل» الأول مختلفة اختلافا بيّنا عن صورته المنقولة في الزمن المتأخر ، ونقع - نحن الدارسين للفكر الاسلامي - في مشكلة أكبر من مشكلة الدارسين التاريخيين الذين يخشون أكثر ما يخشون الهوى : شخصا كان ذلك او قبليا او دينيا.

هذا الوضع الشائك بالنسبة للرسائل العقيدية المبكرة يتطلب في الدارسين أن يقوموا بما أسميه «عمل أركيولوجي» في صور الرسائل المختلفة التي وصلتنا، فيستجلوا «الطبقة» الاصلية من الرسالة من «الطبقة» التالية عليها في الزمن من «الطبقة» الثالثة ، وهكذا دواليك ، ومفتاح ذلك كله - فيما ارى - هو تحليل الفاظ الرسالة الواحدة لفظا لفظا ، لفرز المفاهيم الدقيقة السائدة في جيل ما عن المفاهيم الأخرى السائدة في جيل آخر. وهنا لا بد للدارس من ألا يحصر نفسه في الرسائل العقيدية وحدها ، بل عليه أن يقارن ما فيها بغيرها من الرسائل المعاصرة لها ، كالرسائل الإدارية والسياسية . حتى يصل الى تحديد «تأريخ لغوي» للفظة المعينة او التركيب المعين ، كما ان عليه الا يستزلق الى أحكام جائزة معممة للتشكيك لا لشيء الا لأنه لا يجد دليلا على قضية ما ، فالكشوف لا تزال تتوالى يوما بعد يوم ، وان الكشف الذي قامت به نابيا أبوت من وجود قطعة من كتاب الأشباه والنظائر لمقاتل بن سليمان على ورق البردي ترجع الى منتصف القرن الثاني الهجري . لهو دليل قاطع على أن كتابة كتب كاملة كان قد عرف على وجه التأكيد في اواخر

الدولة الأموية فبالأحرى ان تكون قد وجدت آنذاك أيضا - بل قبل ذلك - رسائل في موضوعات دينية . على ان الاتجاه الفيلولوجي في نقد النصوص ينقل الاسلوب الذي لا غنى عنه للعاملين في الفترة المبكرة ، وهو الخطوة الاولى للضرورة نحو ايجاد معجم تاريخي للالفاظ التقنية في اللغة العربية في نظري .

\* \* \*

خلاصة ما أريد أن اقله إن العمل في الرسائل الأموية المبكرة على المستوى العلمي لا يزال في خطواته الاولى . وفي حين ان من الصعب القطع بصحة الرسائل في صورتها التي وصلتنا عليها في الفترة السابقة على خلافة معاوية ، فإن تحقيق نصوصها في الفترة التالية لذلك ممكن ، وهو أكثر امكانا في الفترة التالية على اصلاحات عبد الملك وحتى آخر ايام الدولة الأموية . والمنهج المطلوب في دراسة هذه الرسائل هو تمحيص نصوصها المروية تمحيصا دقيقا ، ودراسة ألفاظها وتعابيرها وتراكيبها بالتفصيل ، ومقارنة هذه الالفاظ والتعابير والتراكيب القرآنية من ناحية ، وبنصوص البرديات (والنقوش والنقود أحيانا) من ناحية أخرى ، وبنصوص الرسائل الاخرى التي نظن انها معاصرة

لها من ناحية ثالثة ، ثم وضع هذه الرسائل في إطارها التاريخي إداريا وسياسيا وعقيديا .

ورغم ان استعمال هذا المنهج يستغرق وقتا طويلا، ولا يخلو العمل فيه من الإحباط ، فإنه مهمة جلية لابدّ من القيام بها ، والا ظللنا في دائرة التعميم او الأخذ والردّ من دون نتيجة قاطعة عمليا . ويتطلب هذا المنهج ان يفيد الدارس فيه من أعمال الباحثين في الشرق والغرب معا ، مسلمين وغير مسلمين ، فكل له إسهاماته المفيدة ، وإنه لعلّى العرب بالذات تقع المسؤولية الأولى في انجاز هذا العمل ، فالمنهج المطروح في الغرب يمكنهم تعلّمه ، وما يتبقى هو التعامل مع النصوص العربية - بألفاظها وتعابيرها وتراكيبها بألفة الناطق باللغة نفسها ، لاستجلاء خفاياها وإشاراتها ، واكتشاف «الطبقات» المختلفة من الزيادات على أصولها (في حالات التزوير المتعمّد عبر الزمن) . على أن هذا العمل في الضخامة بحيث لا يمكن لشخص واحد أن يقوم به ، ولعلّ من المفيد هنا ان نوجه - نحن الاساتذة - طلابنا في الدراسات العليا للعمل فيه ، فيتوفر بذلك لدينا جيل جديد يتمكن من حمل هذه الأمانة العلمية الغالية وأنه لبعد انجاز هذا العمل



الضخم يمكننا ان ننطلق الى معالجة أنواع أصعب من نماذج النثر العربي المبكر تلك القائمة على الرواية الشفوية ، وخاصة منها فنّ الخطابة .

## الهوامش

(1) C.H. Becker , **Papyri Schott-Reinhardt I** (Heidelberg, 1906, doc ; III, (1)

p. 74

(2) في السطر الثالث والستين من الرسالة المتكونة من تسعين سطرا .

(3) الكتاب بتحقيق أحمد عبيد ، الطبعة الخامسة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1967 ، والرواية المشار إليها وردت في الصفحة 119\_120 .

## المحتوى

- مقدمة ..... كمال عمران 7-10
- في قراءة التراث الديني :  
«الإتقان في علوم القرآن»  
أ نموذجاً ..... عبد المجيد الشرفي 11 - 38
- المنهج الانثروبولوجي  
في دراسة مصادر  
الفكر الاسلامي ..... المنصف بن عبد  
الجليل 39 - 81
- جدلية النص والمنهج :  
آيات من سورة  
لقمان نموذجاً ..... كمال عمران -  
الباجي القمري 83 - 126
- نحو منهج سليم في  
قضية موثوقية الرسائل  
العربية الاسلامية  
المبكرة ..... و داد القاضي 127-162

## موافقات

هذه السلسلة مضاربية ثقافية. لا تطال  
المجال العقدي والفكري فلهما أقطارهما، بل  
تتعلق من القضايا بالرافعة، في المستوى  
المعرفي والثقافي في المفهوم الشامل والفلسفي  
وتشير المسائل المضاربية الشائكة. وهي تكتفي  
بالإشارة دون فرض الحلول وتسطير سبل النجاة  
فهي تطمح إلى أن تعد للمستقبل وهو يستدعي منا  
اللكفاءة والطاعة على مواجهة أنفسنا  
لتدريضها على أن نتحت وجهودها في الوضع  
الملائم والناجع

كمال عمرانكي